



اتفاقية مكة: التحولات في ديناميات الأمن في الشرق الأوسط





إرشادات للكتاب:

ترحب «الأمة» بالمقالات التي تظهر عمقًا ووضوحًا ودقة تحليلية، مع طرح منظم وفهم متين لسياق الموضوع. كما ترحب بالمساهمات التي تتناول الجغرافيا السياسية العالمية، والعالم الإسلامي، والتطورات السياسية والاقتصادية والمنظورات التاريخية، إضافةً إلى ما تشهده مختلف المجتمعات، والإسلامية خاصة، من تحولات اجتماعية وثقافية وتكنولوجية.

ضوابط النشر:

- يجب أن يتراوح طول المقال بين ١٠٠٠ و ١٣٠٠ كلمة، وأن يكون مكتوبًا بلغة عربية واضحة ورصينة.
- يُرجى تضمين الاسم الكامل للمؤلف ونبذة موجزة عنه وإرفاق صورة شخصية (اختياري).
- يجب أن يكون المقال أصليًا وغير منشور سابقًا. يتحمل الكاتب مسؤولية دقة الحقائق والتوثيق الصحيح والحفاظ على النزاهة الفكرية.
- على الكاتب أن يقدم حججًا منطقية مدعومة بأدلة موثوقة عند الاقتضاء.
- تحتفظ «الأمة» بحق التعديل المناسب على المقالات وفق سياستها التحريرية.
- تحتفظ «الأمة» بحق نشر المادة أو عدمه.
- تُرسل المشاركات إلى: info@al-ummah.org

إشعار حقوق الطبع والنشر:

جميع المقالات والمحتويات المنشورة على موقع «الأمة» وفي مجلتها المطبوعة والرقمية محمية بموجب قوانين حقوق الطبع والنشر المعمول بها، وتظل ملكية فكرية لمؤسسة الأمة.

ما لم يُنص على خلاف ذلك، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذه المنشورات، أو تخزينه في نظام استرجاع، أو نقله بأي شكل أو وسيلة، إلكترونية أو ميكانيكية أو عن طريق النسخ الضوئي أو التسجيل أو غير ذلك، دون الحصول على إذن كتابي مسبق من مؤسسة الأمة.

من خلال تقديم أعمالهم، يقر المؤلفون ويوافقون على أنه عند قبول العمل ونشره، تعود حقوق الطبع والنشر للمادة المنشورة إلى مؤسسة الأمة. والآراء الواردة في المقالات الفردية تعبر عن وجهات نظر مؤلفيها، ولا تعكس بالضرورة وجهات نظر المؤسسة.

لحظات مفصلية للأمن الإقليمي وللإعلام الإسلامي

لحلفائها العرب، في تعقيد الوضع أكثر.

الحرب المتواصلة والمتقطعة التي فرضتها إسرائيل على إيران بمساعدة الولايات المتحدة كثيراً ما تجاوزت الحدود، ما أدى إلى تعرض دول مثل المملكة العربية السعودية وقطر وعمان وغيرها لهجمات من جانب كل من إسرائيل وإيران. وقد كشف ذلك هشاشة ما يسمى «المظلة الأمنية الأمريكية»، الأمر الذي أظهر الحاجة إلى تحالف عسكري متعدد الأبعاد، يُنظر إليه بحق بوصفه تحولاً قد يفضي إلى أن تعيد المنطقة تعريف منظومتها الأمنية بنفسها.

ركزنا في موضوع الغلاف لهذا العدد على هذه القضية لأجل أن نفهم تداعيات التشكيل العسكري الذي أطلقته ثلاث من أهم الدول الإسلامية، واستشراف نتائج المحتملة في المرحلة المقبلة

في غضون ذلك، يسرّنا أن نرفق لقارئنا خبر افتتاح المكتب المركزي لمؤسسة الأمة في دكا، وداخل صفحات العدد تقرير مفصل حول أهمية هذه الخطوة وعزمنا على المضي قدماً بثبات نحو إقامة مظلة إعلامية تخدم قضايا الأمة.

■ تأتيكم هذه الطبعة من مجلة الأمة فيما تشهد المنطقة تطورات كثيرة لعل أهمها هو الإعلان عن تشكيل كتل دفاعي إقليمي يتمحور حول تركيا والمملكة العربية السعودية وباكستان. رغم أن هذا التكتل يستلهم المادة الخامسة من حلف شمال الأطلسي (الناتو) التي تنص على أن أي هجوم على أحد أعضائه يُعد هجوماً على جميع أعضائه، إلا أنه من السذاجة اختزال تشكيل هذا التكتل في مجرد نسخة مكررة من حلف الناتو.

يتطلب هذا التطور تحليلاً جاداً وصادقاً للتحويلات الجارية في المشهد الجيوسياسي لمنطقة الشرق الأوسط، التي تتوسطها السياسة الإسرائيلية المدمرة واستمرارها في مشروع الإبادة الجماعية في فلسطين، جنباً إلى جنب مع استمرار القيادة الإيرانية في اتباع تكتيكات ذات طابع رجعي وانتحاري في آن، تغذيها أيديولوجيا توسعية عدائية.

تقع عدة دول عربية في خضم هذه التطورات، وهي سعت إلى إيجاد حلول سلمية للصراعات المستعرة في المنطقة، مع تجنب المواجهة مع إسرائيل أو إيران. فيما تساهم السياسة المعلنة للولايات المتحدة، القائمة على حماية المصالح المشؤومة لإسرائيل مع ادعاء توفير مظلة أمنية



رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
محمد ذاكر حسين

مدير التحرير
عصام الشحادات

المدير الفني
محمد يوسف سالم

الأمة، مجلة شهرية، تصدر
برعاية المركز الإسلامي للبحوث
والتوثيق بنغلاديش. بأربع لغات:
العربية والتركية والبنغالية
والإنكليزية
السادة الكتاب، يمكنكم الكتابة
إلى المجلة على العنوان التالي،
في مجالات العلوم والدراسات
الإسلامية والفكرية، والتاريخ
والسياسة والثقافة. على ألا
يتجاوز عدد الكلمات 1300
كلمة :

Email: info@al-ummah.org
Website: www.al-ummah.org



4 الصفحة اتفاقية مكة: التحولات في ديناميات الأمن في الشرق الأوسط

اتفاقية مكة: التحولات في ديناميات الأمن في الشرق الأوسط 4
افتتاح مكتب منصة «الأمة» في دكا 10
مدخل إلى الفرق بين الذهب والنقود الورقية والربا 14
جيلٌ يحفظ القرآن... لكنه لا يعيش بهديه 18
التمويل متناهي الصغر البديل: من تعظيم الأرباح إلى نهج المسؤولية الاجتماعية 22



34 الصفحة إعادة إعمار سوريا.. إسباني يوثق البعد الإنساني بالصورة



كتاب العدد



أسماء مفيد كامل



محمد مشيور الرحمن



د. أسرار تالوكر



محمد برو



معصوم الرحمن خليلي



د. شاهجهان خان

إخلاء مسؤولية

الآراء الواردة في المجلة تعكس وجهات نظر أصحابها فقط، ولا تتحمل المؤسسة أي مسؤولية عنها

حقوق النشر

يُسمح للقراء باستخدام محتوى هذه المجلة أو إعادة طباعته أو إعادة نشره، شريطة الحصول على إذن مسبق من مؤسسة الأمة، مع ضرورة الإشارة إلى رابط الموقع الإلكتروني الرسمي

الصفحة 10

افتتاح مكتب منصة «الأمة» في دكا

- إبليس في القرآن الكريم: العداوة والإغواء والمسؤولية الأخلاقية 25
- السيطرة على البشر من ميكيا فيللي إلى الخوارزميات الذكية 28
- إعادة إعمار سوريا.. إسباني يوثق البعد الإنساني بالصورة 34
- هل بلغكم من فساد لغتنا حديثاً 40
- الحرية دون معنى وغاية حرية مبتورة 48



الصفحة 42

هل بلغكم من فساد لغتنا حديثاً



اتفاقية مكة:

التحولات في ديناميات الأمن في الشرق الأوسط

■ في 7 أغسطس/آب 2026، وقّعت المملكة العربية السعودية وتركيا وباكستان اتفاقية مكة للدفاع المشترك، في قمة مكة المكرمة في المملكة العربية السعودية. استقطبت هذه الاتفاقية التاريخية اهتمامًا عالميًا، وأثارت تكهنات بأنها قد تؤذن بقيام منظومة أمن إقليمية جديدة، وتحدّ من الاعتماد على المظلة الأمنية الأمريكية، وتتصدى للتهديدات القادمة من إسرائيل وإيران، بل وقد تضع الأسس لما يشبه «حلف شمال أطلسي شرق أوسطي».



محمد ناصر جاويد

كاتب وصحفي وباحث في النزاعات الدولية
باكستان

١١ اتفاقية مكة ليست مجرد تحالف بين جيوش، بل مثلث استراتيجي يمتد عبر بعض أهم طرق الطاقة والممرات البحرية ومناطق الصراع في العالم ١٢

منذ فترة طويلة بأشكال ومستويات مختلفة. فقد كانت هناك بالفعل اتفاقية دفاع متبادل استراتيجية بين باكستان والسعودية منذ سبتمبر/أيلول 2025، كما أن آلية تشاور رباعية ضمت الدول الثلاث الموقعة ومصر (مجموعة R-4) نصّت على أن أي هجوم مسلح على أحد أعضاء التحالف يُعد هجوماً عليهم جميعاً.

أهمية الاتفاقية

تحمل الاتفاقية دلالات رمزية كبيرة. وما يجعلها لافتة للنظر هو التكامل في عناصر القوة بين أعضائها الثلاثة، وهم قوى متوسطة ذات ثقل كبير: باكستان قوة نووية، والسعودية قوة اقتصادية وعملق في مجال الطاقة، وتركيا صاحبة ثاني أكبر قوة عسكرية في حلف شمال الأطلسي، فضلاً عن امتلاكها قاعدة صناعية دفاعية قوية. وبينما أخفقت المحاولات السابقة التي بذلتها الولايات المتحدة لإقامة تحالف شرق أوسطي يضم أقرب شركائها إليها، فإن هذا الترتيب الإقليمي الخالص يكشف تنامي قدرة القوى الإقليمية على المبادرة الاستراتيجية، وتزايد مخاوفها في الوقت نفسه. كما أن إبرام الاتفاقية في مكة، أقدس مدن الإسلام، يضيف على بعدها الديني أهمية رمزية إضافية ويعزز جاذبيتها لدى الرأي العام.



لكن التحليل الأكثر اتزاناً يقتضي فهم المشهد الجيوسياسي في ضوء الصراع في المنطقة، وفي مقدمته استمرار إسرائيل منذ عقود في ارتكاب إبادة جماعية بحق الفلسطينيين. وقد زادت الحرب الأمريكية على إيران، التي جاءت استجابة لمطالب إسرائيل، الوضع تعقيداً، بما عرّضت الدول العربية المجاورة لتداعيات عسكرية ناجمة عن الصراعات الدائرة في محيطها. كما جعل عجز الولايات المتحدة عن توفير مظلة أمنية لحلفائها في المنطقة اجتماع الدول الثلاث ضرورة لإقامة ردع جماعي يسهم في تحقيق الاستقرار الإقليمي، ويعزز في الوقت نفسه التعاون الدفاعي بينها.

مع ذلك، فإن مثل هذه الترتيبات العسكرية ليست وليدة اللحظة، بل يجري العمل عليها

دولة والاتحاد الأوروبي، فيما أيدت 14 دولة، من بينها تركيا وباكستان ومصر، المبادرة رسميًا. الرسالة كانت واضحة: لم تعد القوى الإقليمية تريد مجرد استهلاك الأمن الذي يوفره الآخرون، بل تريد أن تتولى هي إنتاجه.

تحول المنظومة الأمنية

تجاوز أهمية اتفاقية مكة بكثير ما تنص عليه من ترتيبات عسكرية. فمن خلال إدخال السعودية وتركيا وباكستان في إطار أمني رسمي، تربط الاتفاقية بين ثلاث قوى إسلامية كبرى تتمتع كل منها بمقومات قوة تكمل الأخرى: الثقل المالي والسياسي السعودي، وصناعة الدفاع التركية الآخذة في التوسع وقدرتها على التحرك الاستراتيجي، والمؤسسة العسكرية الباكستانية الكبيرة وقدرتها النووية. والأهم من ذلك أنها تكشف مدى السرعة التي تتغير بها البنية الأمنية في الشرق الأوسط.

تمثل الاتفاقية بالنسبة إلى السعودية وتركيا تحولاً لافتاً. فقد انتقلت علاقاتهما من التنافس إلى التقارب ثم إلى التعاون الأمني الرسمي. سبق أن تنافست الدولتان بشدة على النفوذ الإقليمي بعد الربيع العربي، لكنهما نظران اليوم إلى التعاون بصفته أكثر فائدة من المواجهات العقيمة. هذه النقطة وحدها تمنح الاتفاقية وزناً رمزياً كبيراً. لكن الرمزية ليست ردعاً.

تفيد التقارير بأن الاتفاقية تتضمن مبدأ للدفاع الجماعي، فأى هجوم على أحد الأعضاء هو هجوم على الجميع. لكن الاستجابة ستحدد من خلال التشاور والتوافق، لا عبر تدخل عسكري تلقائي. ومن ثم، يمكن أن تتراوح المساعدة بين تبادل المعلومات الاستخبارية وتقديم الأسلحة والدعم اللوجستي، وصولاً إلى التدخل العسكري المباشر.

جغرافياً، تربط الدول الثلاث بين شبه الجزيرة العربية والأناضول وجنوب آسيا. وهي تقع في محيط مضيق هرمز والبحر الأحمر وشرق البحر المتوسط والبحر الأسود والمحيط الهندي. لذلك فالأمر لا يتعلق بمجرد تحالف بين جيوش، بل بمثلث استراتيجي يمتد عبر بعض أهم طرق الطاقة والممرات البحرية ومناطق الصراع في العالم.

توقيت الاتفاقية ليس عرضياً أيضاً. فقد عانى الشرق الأوسط سنوات من الحروب وتبادل الصواريخ والهجمات على الملاحة البحرية والصراعات بالوكالة، إلى جانب حالة من عدم اليقين حول مستقبل الضمانات الأمنية الأمريكية. وعلى مدى عقود، قام أمن الخليج على صفقة غير مكتوبة قوامها أن توفر الولايات المتحدة الحماية، مقابل بقاء المنطقة محوِّراً أساسياً في منظومة الطاقة العالمية. لكن الأزمات المتكررة كشفت حدود هذا الترتيب.

لا تزال واشنطن قوة عسكرية هائلة، لكن حكومات المنطقة تتساءل أكثر وأكثر عما إذا كان الدعم الأمريكي سيأتي في الوقت المناسب، وما إذا كان سيكون غير مشروط، وما إذا كان سيتوافق مع مصالحها.

في الوقت نفسه، أدى اتساع نطاق القدرات العسكرية الإسرائيلية، وتطور القدرات الصاروخية الإيرانية وشبكاتها الإقليمية، وهجمات الحوثيين، والتهديدات التي تواجه البحر الأحمر، إلى جعل الاعتماد على قوى حامية بعيدة يبدو محفوفاً بالمخاطر بصورة متزايدة.

قبيل اتفاقية مكة بوقت قصير، أعلنت السعودية خطاً لتشكيل تحالف بحري متعدد الجنسيات لحماية الملاحة التجارية وطرق الطاقة في البحر الأحمر. وحضر الاجتماع المعني ممثلون عن 43



معاهدة الدفاع المشترك لجامعة الدول العربية لعام 1950 واتفاقية الدفاع المشترك لمجلس التعاون الخليجي لعام 2000 لغة سياسية قوية، لكن ما حققناه من فاعلية عسكرية جماعية محدود جداً. ولن تكون لاتفاقية مكة أهمية حقيقية إلا إذا نجح أعضاؤها في بناء مؤسسات قادرة على تحويل الإرادة السياسية إلى قدرة عملياتية.

لذلك، قد تكون خطط إنشاء لجنة سياسية عسكرية وأمانة مقرها السعودية أكثر أهمية من بند الدفاع المتبادل الذي استحوذ على اهتمام وسائل الإعلام. فمن شأن المناورات المشتركة، وقابلية تشغيل منظومات الأسلحة والاتصالات بصورة متبادلة، وتنسيق تقييمات التهديدات، وتبادل المعلومات الاستخبارية، ثم إنشاء هيكل قيادة مشتركة في نهاية المطاف، أن تميز منظومة أمنية فاعلة من اتفاقية أخرى

قد تكون هذه المرونة ضرورية من الناحية السياسية، لكنها تكشف في الوقت نفسه عن نقطة الضعف الأساسية في الاتفاقية: ماذا يحدث عندما تتباين مصالح أعضائها؟

فالدول الثلاث لا تتقاسم بالضرورة الترتيب نفسه للتهديدات. لا تزال الرياض شديدة القلق إزاء إيران وشبكاتها الإقليمية. أما أنقرة فتتظر بصورة متزايدة إلى إسرائيل باعتبارها تحدياً استراتيجياً رئيسياً. في المقابل، يتعين على باكستان أن توازن التزاماتها الأمنية مع تنافسها مع الهند وعلاقتها المعقدة بإيران. الاختبار الحقيقي للتحالف بين هذه الرؤى المختلفة للتهديدات لن يكون فيما يعلنه أعضاؤه في أوقات السلم، بل في الخيارات التي يتخذونها أثناء الأزمات.

التاريخ يدعونا إلى توخي الحذر. فقد أنتجت



ذات طابع احتفالي.

أحد المجالات التي يمكن أن يتقدم فيها التعاون بسرعة هو قطاع الصناعات الدفاعية.

طورت تركيا قطاعاً دفاعياً محلياً قوياً، لا سيما في مجالات الطائرات المسيّرة والصواريخ والإلكترونيات وتطوير الطائرات. وتملك باكستان خبرة تمتد لعقود في الصناعات العسكرية، فضلاً عن علاقات دفاعية راسخة مع الدولتين. أما السعودية فتملك الموارد المالية وبرنامجاً طموحاً لتوطين إنتاج الصناعات الدفاعية. ويمكن للدول الثلاث، مجتمعة، أن تسعى إلى إجراء أبحاث مشتركة والتصنيع المشترك والمشتريات المشتركة وتطوير الأسلحة مع

تقليص اعتمادها على الموردين الغربيين.

المسألة النووية تظل أكثر التباساً. فكون باكستان الدولة الوحيدة ذات السلاح النووي في العالم الإسلامي يثير حتمًا تكهنات حول الردع الممتد. وقد أرسلت إسلام آباد إشارات متناقضة عقب اتفاقها الدفاعي مع الرياض عام 2025، فيما شدد مسؤولون سعوديون لاحقاً على أن الترتيبات لا تتضمن أي بُعد نووي. ولم يصدر عن الاتفاقية الثلاثية أي ضمان نووي صريح. لكن الغموض نفسه ينطوي على قيمة استراتيجية؛ إذ يتعين على الخصوم الآن أن يحسبوا حساباً ليس لما تنص عليه الاتفاقية فحسب، بل لما قد تفعله باكستان في حال وقوع أزمة بالغة الخطورة.

منطقة تعيد حساباتها

من المستبعد أن تتجاهل إيران أو إسرائيل هذه التطورات. وقد أعلنت طهران علناً أنها لا ترى سبباً يدعوها إلى الخوف من الاتفاقية، بينما ستدرس إسرائيل حتمًا ما يمكن أن يعنيه تعمق التعاون العسكري التركي-الباكستاني-السعودي بالنسبة إلى توازن القوى الإقليمي.

الهند أيضًا ستتابع التطورات عن كثب، فنيودلهي تتمتع بعلاقات قوية مع الرياض، لكنها ترتبط بعلاقات صعبة مع كل من باكستان وتركيا، لا سيما مع تزايد التوتر مع الأخيرة. ومن ثم، فاندماج باكستان بصورة أعمق في الهياكل الأمنية للشرق الأوسط يضيف عاملاً آخر إلى الحسابات الاستراتيجية الهندية.

لكن الأهمية الأوسع في الاتفاق تتعلق بالولايات المتحدة. فالتحالف لا يمثل بالضرورة رفضاً لواشنطن. فما تزال للسعودية وتركيا وباكستان علاقات مهمة مع الولايات المتحدة. لكنه يعكس أمرًا أكثر دقة: المنطقة تتخذ احتياطاتها.

فالحروب المتكررة والهجمات على البنية التحتية في الخليج والشكوك حول اتساق الضمانات الأمنية الأمريكية، دفعت القوى الإقليمية إلى بناء طبقات إضافية من الحماية. هي لا تستبدل بالضرورة المظلة الأمريكية، بل تستعد لاحتمال ألا تعود هذه المظلة كافية.

من هذا المنظور نرى أن اتفاقية مكة ليست «حلًا إسلاميًا على غرار حلف شمال الأطلسي»، وربما لن تصبح كذلك أبدًا. غير أن أهميتها تمكن في مكان آخر. فهي دليل على أن الشرق الأوسط يتجه أكثر وأكثر إلى تأمين نفسه في مواجهة حالة عدم اليقين، وإلى امتلاك قدر أكبر من السيطرة على أمنه. وقد يتبين في نهاية المطاف أن لهذا التحول أهمية تتجاوز أهمية الاتفاقية نفسها.

الخاتمة

تكتسب اتفاقية مكة طابعًا تاريخيًا لأنها تحطم سياسة واشنطن الممتدة لعقود والرامية إلى دمج إسرائيل في المنطقة العربية، كما تمثل انتكاسة لمشروع الرئيس الأمريكي دونالد ترامب الطموح القائم على اتفاقيات أبراهام، الذي دفع في بدايته حلفاء الولايات المتحدة في الخليج إلى الاعتراف بإسرائيل.

لقد عزز الخطأ الاستراتيجي الذي ارتكبه الولايات المتحدة في إيران تصورًا مفاده أن الولايات المتحدة شريك لا يمكن الاعتماد عليه، ودفع القوى الإقليمية إلى تحمل قدر أكبر من المسؤولية عن أمنها. ومع ازدياد تقارب السعودية مع باكستان وتركيا، تبدو آفاق التطبيع السعودي-الإسرائيلي بعيدة المنال. ورغم أنه من غير المرجح أن تحل اتفاقية مكة محل الشراكات الدفاعية والأمنية المتميزة التي تربط الدول الثلاث بالولايات المتحدة، لكنها تمنح الفاعلين الإقليميين خيارات تتجاوز تلك التي تتيحها الأطر المتمحورة حول الولايات المتحدة.

سيواجه التحالف في المرحلة المقبلة اختبارات متعددة، وأكثرها إلحاحًا كيفية استجابته لتجدد الأعمال العدائية بين السعودية وحلفاء إيران من الفاعلين غير الدوليين في المنطقة، أي أنصار الله (الحوثيين) في اليمن، والحشد الشعبي في العراق. كما سيكون استمرار التنسيق حول القضايا الإقليمية الرئيسية، بما فيها الحرب في السودان واليمن، وسلامة الأراضي الصومالية، وخطة السلام الخاصة بغزة، ونجاح الحكومة السورية في مرحلة ما بعد الأسد، اختبارًا حاسمًا لمدى تماسك التحالف. كما أن سرعة عملية بناء مؤسسات التحالف والتعاون في مجال الصناعات الدفاعية سيكون مؤشرًا موثوقًا إلى مصداقية هذا الترتيب.

افتتاح مكتب منصة «الأمة» في دكا

المكتب الجديد سيسهم في تعزيز المعرفة والحوار الفكري البناء على المستوى العالمي



الفكري البناء على نطاق عالمي». افتتاح المكتب خطوة جديدة في مسار تطوير منصة «الأمة» وهدفها كمنصة دولية للباحثين والأكاديميين وصانعي السياسات والصحفيين والمفكرين الشباب، لمناقشة القضايا العالمية الراهنة وتبادل الآراء، إلى جانب التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية والحلول القائمة على المعرفة. ضيف الشرف للافتتاح الدكتور أ. ف. م. خالد حسين، مستشار الشؤون الدينية السابق في الحكومة المؤقتة، أكد على أهمية إعداد جيل جديد من الكتاب. وقال إن «الأمة» تستطيع جمع الكتاب الواعدين في منصة مشتركة. وأكد استعداداته الكامل للتعاون مع هذه المبادرة، مشيرًا إلى أنها يمكن أن تسهم في تعزيز الروح الحقيقية للأمة الإسلامية. رئيس الحفل الأستاذ نقيب محمد نصر الله، نائب

بقلم: هيئة تحرير «الأمة»

المقدمة

■ شدد المتحدثون في حفل الافتتاح على أهمية بناء مجتمع قائم على المعرفة، وأعربوا عن أملهم في أن تسهم منصة «الأمة» في النهضة الفكرية للعالم الإسلامي وتعزيز التعاون البحثي والإعلام المسؤول والحوار العالمي.

افتتحت منصة «الأمة» رسميًا مكتب تمثيل في دكا في 15 أغسطس/آب، وسيكون مقرًا لإدارة المجلة الشهرية والموقع الإلكتروني الرسمي. وأكد القائمون على المنصة أن هذه الخطوة ستسهم في تسريع العمل في «تعزيز المعرفة والبحث والحوار



الإعلام وباستخدام قوة الإعلام. حبيب الله محمد إقبال، رئيس "مؤسسة تنظيم الأمة"، دعا منصة «الأمة» إلى الإسهام الفعّال في بناء بنغلاديش جديدة. وحث الجميع على العمل جماعة بدلاً من إلقاء اللوم على الحكومة أو الآخرين، قائلاً: «ينبغي تطوير مؤسسة الأمة، التي أسسها الأخ ذاكر، لتصبح رمزاً حقيقياً لأمة موحدة».

صابر أحمد، مدير مدرسة وكلية قرطبة، قال إن الإعلام هو الوسيلة الأولى والأساسية لمن يريد القيام بأي عمل بناءً.

كما شارك في الافتتاح الصحفي المخضرم صالح أحمد وقال إن العاملين في الإعلام يجب أن يؤديوا دوراً مسؤولاً لأنهم هم المتحدثون باسم المجتمع. وأوضح أن المتحدث باسم المجتمع يتحمل مسؤولية كبيرة، وأن الوفاء بهذه المسؤولية يتطلب قراءة واسعة ومعرفة سليمة وتخصّصاً قائماً على الإلمام بالموضوع.

الكاتب والصحفي الدكتور إقبال كبير موهون شارك بحضوره ورأى أن إعداد كتاب ذوي كفاءة وإنتاج رفيع المستوى يجب أن يرافقه تشكيل هيئة تحرير قوية تضم محررين أكفاء. وشدد على ضرورة اتباع سياسة تحرير صارمة لضمان جودة الكتابة ودقة المعلومات والالتزام بالمعايير المهنية للعمل الصحفي.

رئيس جامعة الجامعة الإسلامية في بنغلاديش سابقاً، قال إن الأمة الإسلامية تمرّ بمحن متعددة وتختلف في عدد من المجالات في العالم المعاصر. لكنه شدد على أنه لا يوجد ما يدعو إلى اليأس، بل العمل العمل.

محمد ذاكر حسين، رئيس مؤسسة «الأمة» ورئيس تحرير مجلة «الأمة»، قال إن الإعلام الإسلامي لا يختلف في موضوعاته ووسائله عن الإعلام المعاصر، لكنه يتميز بصيغة إسلامية مستمدة من روح الشريعة، تنعكس في مضمونه وشكله ورسائله؛ فهو غير محصور بال مجال الديني الضيق، بل يتناول مختلف المعلومات والحقائق والأخبار المتصلة بجوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية وخير المسلمين.

ولفت السيد ذاكر الانتباه إلى التحديات التي تواجهها مختلف القنوات التلفزيونية والصحف والمجلات ووكالات الأنباء التي تخدم مصالح المسلمين وإلى حقيقة أن بعضها يعاني من شيء من التلهل والمناطقية. وأعرب عن رغبة قوية في أن يرى منظومة إعلامية قوية تبرز مصالح العالم الإسلامي وواقعه على حقيقتها. وأوضح أن مثل هذه المنصة الإعلامية ينبغي أن تعمل بصورة محايدة بعيداً عن التيارات السياسية والتسييس، وأن يكون هدفها الأساسي خدمة مصالح الأمة الإسلامية بأسرها، عبر



وقال المتحدثون إن تحقيق التنمية المستدامة والسلام والريادة الفكرية في العالم المعاصر لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال تكامل المعرفة والتكنولوجيا والتعاون الاستراتيجي.

أوضح القائمون على المبادرة أن «الأمة» بدأت مسيرتها استجابة للحاجة إلى توسيع نطاق الخطاب البحثي والفكري لمعالجة التحديات السياسية والاقتصادية والثقافية التي يواجهها العالم الإسلامي في ظل النظام العالمي الراهن، بدلاً من الاعتماد على مقاربات تقوم على العاطفة وحدها. وتهدف المجلة إلى إيجاد مجال جديد للنقاش القائم على المعرفة، من خلال نشر البحوث العلمية والمقالات التحليلية وأوراق السياسات والكتابات التي تعبر عن وجهات النظر والتقارير الخاصة حول الشؤون الدولية.

تصدر «الأمة» حاليًا بأربع لغات هي البنغالية والعربية والتركية والإنجليزية. وقال المنظمون إن هناك خططًا لإضافة لغات أخرى في المستقبل.

ويتوقع القائمون على المبادرة أن يسهم ذلك في توسيع نطاق تبادل المعرفة والتعاون الفكري بين الباحثين والمفكرين من مختلف مناطق العالم، إلى جانب إيجاد مجال للترابط الاستراتيجي والتعاون القائم على المعرفة بين الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي.

الدكتور خليل الرحمن المدني، مدير مدرسة «تعمير الأمة» في دكا (Dhaka Tamirul Millat Madrasa)، قال إن اليوم يبدأ بندا: «الصلاة خير من النوم». وأوضح أن حياة الإنسان تدور حول الاقتصاد والمال، لكن ثمة حاجة إلى إعادة التفكير في عدد من المفاهيم السائدة المتعلقة بهذا الأمر. واستشهد بالآية القرآنية: ﴿أَنْتُمْ تَرْعَوْنَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ؟﴾، مشددًا على ضرورة إعمال الفكر بعمق في قضايا الثروة والاقتصاد.

في العموم، أجمع المتحدثون في الافتتاح أن كل من يرتبط بمنصة «الأمة» يستطيع أن يؤدي دورًا مهمًا في تقديم معلومات صحيحة وموثوقة ومفيدة إلى الجمهور. وأعربوا كذلك عن أملهم في أن يسهم إيصال المعلومات الدقيقة إلى الناس في تحقيق رفاه المجتمع والأمة الإسلامية.

كذلك، تمنى الحضور النجاح لمؤسسة «الأمة» ولمجلتها ولموقعها الإلكتروني، ودعوا مختلف فئات المجتمع إلى تقديم الدعم والتعاون لجميع المشاركين في هذه المبادرة.

وكان الافتتاح مناسبة لتسليط الضوء أيضًا على أهمية بناء مجتمع قائم على المعرفة وتحقيق النهضة الفكرية للعالم الإسلامي وتعزيز التعاون البحثي وترسيخ الإعلام المسؤول والحوار العالمي.



والحضارية لمدينة القدس، والتعريف بمكانتها وقيمتها العالمية للأجيال المقبلة من منظور الإسلام والمسيحية وتاريخ الإنسانية، إلى جانب توسيع نطاق نشاطها الدولي، لا سيما في مجالات البحث العلمي، وحماية التراث الثقافي والتوعية العامة ومناصرة قضية القدس.

■ أُقيم في إسطنبول يوم 23 أغسطس/آب 2026 برنامج خاص لإحياء ذكرى القدس والمسجد الأقصى، وذلك على هامش معرض إسطنبول الدولي للكتاب العربي، بالتزامن مع إطلاق النسخة العشرين من تقرير «عين على الأقصى»، والإعلان الرسمي عن تأسيس فرع مؤسسة القدس الدولية في تركيا وافتتاح مكتبها الإقليمي في إسطنبول، فضلاً عن إحياء الذكرى السنوية السابعة والخمسين لحريق المسجد الأقصى الذي اندلع في 21 أغسطس/آب 1969.

جاء افتتاح المكتب في إسطنبول في إطار سعي مؤسسة القدس الدولية إلى تعزيز أنشطتها الرامية إلى حماية الهوية التاريخية والثقافة

الدولية من إسطنبول بعد تعذر استمرار أعمالها في بيروت بسبب الحرب التي اندلعت في 28 فبراير/شباط الماضي.

وقال إن «الرأية أصبحت اعتباراً من اليوم في يد تركيا»، مؤكداً أن المؤسسة ستواصل أنشطتها من منطقة الفاتح في إسطنبول، وستعمل على توسيع نطاق حضورها ونشاطها بأفضل صورة ممكنة.

أخطار تهدد المسجد الأقصى

المدير العام لمؤسسة القدس الدولية، ياسين حمود، قال إن المؤسسة تصدر كل عام تقريراً شاملاً وتحليلياً يوثق أوضاع المسجد الأقصى الواقع تحت الاحتلال.

وأوضح أن تقرير هذا العام رفع مستوى التحذير إلى أعلى درجاته حول ثلاثة أخطار رئيسية؛ أولها فرض احتمال تقسيم المسجد الأقصى فعلياً من خلال السيطرة على ساحاته الشرقية، وثانيها شن هجوم واسع على المسجد بسبب تزايد الاستفزازات، بما في ذلك احتمال إضرام النار فيه أو تنفيذ تفجير داخله، وثالثها القضاء بشكل كامل على ما تبقى من الوضع التاريخي القائم في المسجد وإنهاء دور الأوقاف الإسلامية.

وقال حمود إن هذه الأخطار تقف وراءها الحكومة الإسرائيلية والشرطة و«منظمات الهيكل»، معتبراً أن هناك خطراً رابعاً يهدد مستقبل المسجد الأقصى مصدره العرب والمسلمون أنفسهم.

وحذر من أن ضعف الأمة الإسلامية وانقسامها المتزايد جعل المسجد الأقصى مكشوفاً تماماً أمام الاحتلال. وشدد حمود على أن بيانات رفض سياسات الاحتلال غير كافية لمواجهة هذه التحديات.

من جانبه، قال رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، علي محيي الدين القره داغي، إن الإسرائيليين يريدون هدم المسجد الأقصى وإعادة

بناء ما يسمونه «الهيكل الثالث»، ويحاولون تبرير ذلك من الناحية الدينية والتاريخية وحتى الأثرية.

وأضاف أن هذه القضية أصبحت هدفاً أساسياً بالنسبة إليهم، وأنهم يتخذون خطوات جدية في هذا الاتجاه، داعياً المسلمين إلى تحمل مسؤولياتهم تجاه المسجد الأقصى.

وأشار القره داغي إلى أن قضية المسجد الأقصى هي أيضاً قضية عقيدة، معتبراً أن ما تشهده أوروبا والولايات المتحدة من تغيرات اجتماعية في الموقف من القضية الفلسطينية يمثل إحدى نتائج «طوفان الأقصى».

القدس ليست مجرد مدينة أو جغرافيا

الأكاديمي التركي ياسين أقطاي قال إن القدس ليست مجرد مدينة أو جغرافيا أو تاريخ، بل هي ذاكرة وقبلية والإسراء والمعراج، ومدينة مباركة وطأتها أقدام الأنبياء، كما أنها أحد أهم الشواهد على الذاكرة الدينية والتاريخية المشتركة للبشرية.

وأوضح أقطاي أن احتلال إسرائيل للقدس لا يعني مجرد احتلال أرض أو السيطرة على مدينة، بل هو اعتداء على الهوية التاريخية للقدس ودورها الحضاري وذاكرة الإنسانية المشتركة.

وشهد البرنامج كذلك مداخلات لرئيس قسم الأبحاث والتطوير في مؤسسة القدس الدولية الدكتور هشام يعقوب، والباحث الأول في المؤسسة علي إبراهيم، كما عُرضت رسالة مصورة للشيخ عكرمة صبري، المفتي السابق للقدس وفلسطين وإمام وخطيب المسجد الأقصى ورئيس الهيئة الإسلامية العليا في القدس، إلى جانب عدد من العلماء والباحثين.

مشاركة «مؤسسة الأمة»

ومن المشاركين في الفعالية كان السيد محمد ذاكر حسين، رئيس «مؤسسة الأمة» ورئيس تحرير مجلة «الأمة»، حيث قَدَّم إلى الشيخ عصام البشير، العالم والكاظم الإسلامي المعروف، ترجمة كتاب



«الأربعون في ثغور المرابطة ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس» إلى اللغة البنغالية.

وأكد ذاكر حسين أهمية ترجمة الأدبيات المتعلقة بفلسطين والقدس إلى مختلف اللغات، ونشرها بين الشعوب والناطقين باللغات المختلفة، بما يساهم في توسيع دائرة الوعي بالقضية الفلسطينية وبأهمية القدس والمسجد الأقصى.

مؤسسة القدس الدولية

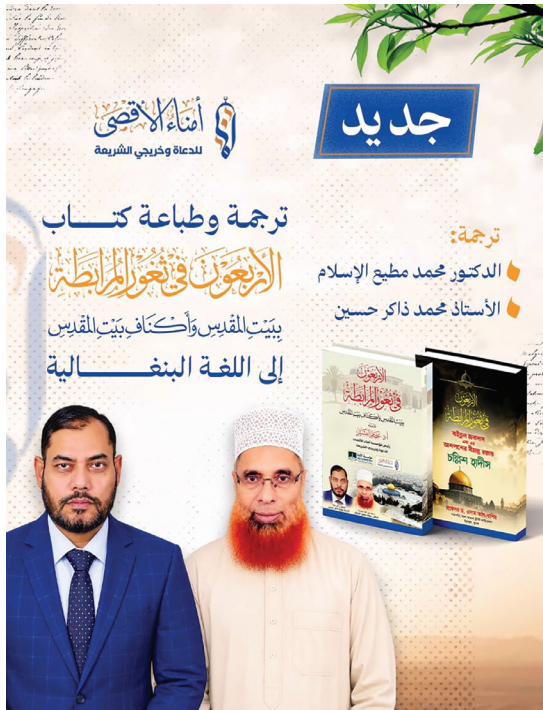
تجدر الإشارة إلى أن مؤسسة القدس الدولية لا تعامل مع قضية القدس كقضية سياسية فقط، بل تتبنى مقاربة شاملة تجمع بين التاريخ والثقافة والقانون والتعليم والتخطيط العمراني والهندسة المعمارية وحقوق الإنسان والحضارة.

تشمل مجالات عمل المؤسسة إجراء البحوث العلمية وإنتاج المعلومات الدقيقة وحماية التراث الثقافي إلى غير ذلك من النشاطات.

طُرحت فكرة تأسيس المؤسسة في المؤتمر العربي الإسلامي الثالث الذي عُقد في بيروت في 21 أكتوبر/ تشرين الأول 2000، بهدف إنشاء مؤسسة مدنية مستقلة تعمل على حماية الهوية التاريخية للقدس وإجراء الدراسات العلمية وتنظيم النشاط على المستوى الدولي.

وبعد استكمال الأعمال التحضيرية، عُقد المؤتمر التأسيسي في بيروت في 28 يناير/ كانون الثاني 2001، وسُجلت المؤسسة لاحقاً لدى مجلس الوزراء في الجمهورية اللبنانية، وواصلت أنشطتها الدولية ضمن إطار مؤسسي.

تركز المؤسسة بخاصة على الأبحاث والدراسات المتعلقة بالقدس وتراثها الثقافي، بما في ذلك إعداد الكتب والمجلات والتقارير والأبحاث، وأرشفة ذاكرة المدينة وتوثيقها، وتنفيذ مشاريع مشتركة مع الجامعات ومراكز الأبحاث، وتنظيم المؤتمرات والندوات وورش العمل.





مدخل إلى الفرق بين الذهب والنقود الورقية والربا

ملكية وتعترف بها الحكومات. ومع تطور الاقتصاد، ظهرت في نهاية المطاف النقود الورقية الحديثة وأنظمة المعاملات الرقمية إلى جانبها.

في بنغلاديش، التاكا هي العملة الرسمية

والنقود تعني الإقراض والإقراض يعني الربا. يقول الله تعالى عن الربا: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ

محمد مشيور الرحمن
محلل في الشؤون الاقتصادية
والأعمال بنغلاديش



■ بدأ تاريخ النقود بنظام المقايضة، فكانت السلع تُبَادَل بسلع أخرى. ثم استُخدمت قطع موزونة من المعادن النفيسة، كالذهب والفضة، كما يتضح من عملات الأسد في مملكة ليديا Lydian Lion coins. ثم ظهرت عملات معدنية تحمل رموزًا

٢٢ العملات الذهبية والفضية تختلف عن الورقية. فالذهب يظل يُشتري ويُباع في السوق حتى عندما لا يستخدم عملة رسمية ٢٢

ذهبية ودراهم فضية إسلامية خالصة. فأزيلت صور
الأشخاص، ونُقشت على العملات كتابات عربية
وآيات قرآنية وعبارة «لا إله إلا الله».

جدير بالملاحظة هنا أن للدنانير الذهبية والدراهم
الفضية خصائص مميزة معينة لا تمتلكها العملات
الورقية. أولاً، كانت لها قيمة ذاتية؛ فالقطعة النقدية
نفسها كانت ذات قيمة لأنها مصنوعة من الذهب
أو الفضة. ثانيًا، كان للعملات الذهبية نوعان من
القيمة: قيمة استعمالية وقيمة تبادلية. ثالثًا،
حتى لو أوقفت حكومة ما التعامل بعملات ذهبية
معينة أو أبطلت اعتبارها عملة قانونية، فإنها لا تفقد
بالضرورة قيمتها الأساسية.

أما خصائص العملة الورقية، أو النقود الإلزامية،
فهي مختلفة. أولاً، لا تتمتع العملة الورقية إلا بقليل
من القيمة الذاتية أو لا تتمتع بها إطلاقًا. ثانيًا، تُحافظ
على قيمتها من خلال مصداقية الحكومة وكونها
نقدًا قانونيًا. بعبارة أخرى، تعمل هذه العملة لأن
الحكومة تعلن إمكانية استخدامها في شراء السلع
والخدمات وبيعها، ولأن الناس يقبلونها على هذا
الأساس. ثالثًا، يمكن النظر إلى العملة الورقية
كبدل عن أصل نقدي، لكنها ليست الشيء نفسه
الذي يمثل الذهب أو الفضة فعليًا. رابعًا، إذا سحبت
الحكومة عملة ورقية من التداول، فقد تزل فائدتها
النقدية، ولا يبقى من الورق نفسه إلا قيمة عملية
ضئيلة.

والسؤال هنا هو: على ماذا يُصدر التاكا والدولار
الأمريكي؟



النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿البقرة: 275﴾.

الربا مصطلح عربي شائع الاستخدام. ويفسره
بعضهم بأنه الفائدة، أي المبلغ الإضافي الذي يُفرض
مقابل إقراض المال، بينما يفسره آخرون على نحو
أوسع بأنه ظلم اقتصادي، أي أي شكل من أشكال
الإضرار أو التجاوز الاقتصادي. على سبيل المثال،
يُعدّ حرمان العمال من أجور عادلة، أو الاستيلاء على
أموال شخص آخر عن طريق التلاعب أو الاحتيال في
سوق الأسهم، من صور الظلم الاقتصادي أيضًا.

في الحقبة الإسلامية المبكرة كانت الدراهم الفضية
(وهي عملات مرتبطة بالإمبراطورية الفارسية
الساسانية)، والدنانير الذهبية (وهي عملات مرتبطة
بالإمبراطورية الرومانية البيزنطية)، متداولة في
الأسواق، كما تُظهر الدراسات التاريخية. وفي وقت
لاحق، أدخل الخليفة عبد الملك بن مروان دنانير

حتى عام 1971، كان الدولار الأمريكي قابلاً للتحويل إلى ذهب في ظل النظام النقدي الدولي القائم آنذاك. في هذا النظام، كانت وحدة العملة تمثل كمية محددة من الذهب. في عام 1971، أنهى الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون قابلية تحويل الدولار إلى ذهب. أما اليوم، فلا يُصدر التاكا ولا الدولار الأمريكي مقابل كمية ثابتة من الذهب. وتستمد العملات الورقية الحديثة قيمتها من دعم الحكومة والمؤسسات النقدية والقدرة الاقتصادية والثقة بالعملية وبالدولة المُصدرة لها. ويُعرف هذا باسم نظام النقود الإلزامية، أي النقود التي تُنشأ بموجب سلطة الحكومة.

خلال جائحة كوفيد-19، اتخذ التوسع النقدي مساراً آخر. ففي عام 2020، أدخلت الحكومات والبنوك المركزية في أنحاء العالم، لا سيما في الولايات المتحدة وأوروبا، إجراءات واسعة للتوسع النقدي (QE) ودعم السيولة، بما في ذلك التيسير الكمي وقد أنشئ جزء كبير من الأموال الجديدة إلكترونياً وأضيف إلى النظام المالي، بدلاً من إصداره مقابل كمية مقابلة من الذهب أو غيره من الأصول المادية. وفرت هذه الإجراءات دعماً للاقتصاد، وإن ارتفع التضخم لاحقاً في العديد من البلدان. ومن هذا المنظور، تمثل الأموال التي طبعت خلال الجائحة

توسعاً كبيراً في النقود الإلزامية

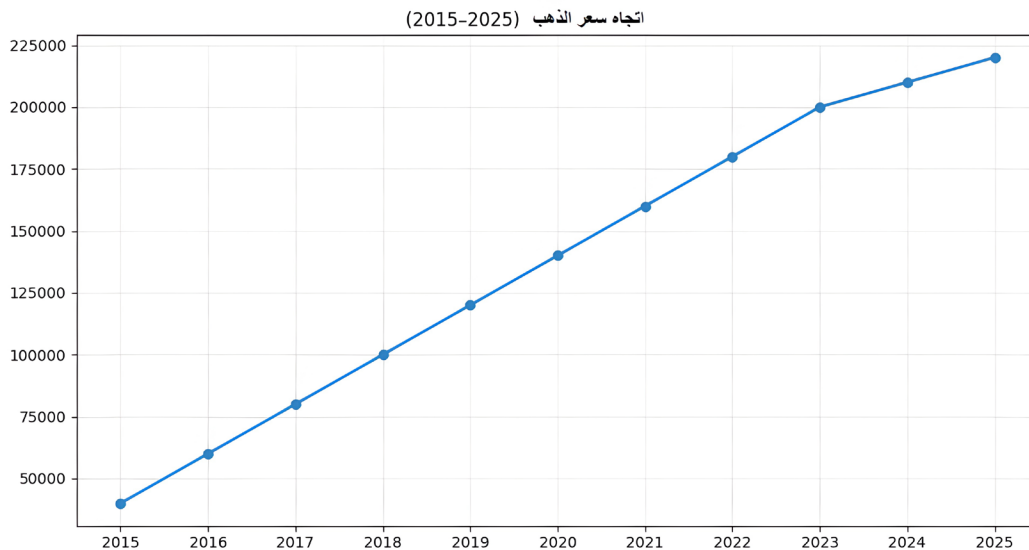
والنقطة الأساسية في النقاش أعلاه هي أن العملات الذهبية والفضية تختلف اختلافاً جوهرياً عن العملة الورقية. فالذهب، نظراً إلى ما يتمتع به من قيمة عملية وذاتية، يظل يُشتري ويُباع في السوق حتى عندما لا يستخدم عملةً رسمية.

فعندما يرتفع سعر الذهب من 40,000 تاكا إلى 200,000 تاكا مثلاً، يمكن النظر إلى الأمر بطريقتين: إما أن الذهب أصبح أعلى، أو أن قيمة التاكا انخفضت مقارنة بالذهب. وفي كثير من الحالات، يعكس ارتفاع سعر الذهب بالعملية الورقية انخفاض القوة الشرائية لتلك العملة.

بعبارة أخرى، إذا استخدمنا الذهب معياراً للمقارنة، يمكن أن نلاحظ علاقة عكسية بين قيمة العملة الورقية وسعر الذهب: كلما ارتفع سعر الذهب مقوّمًا بالعملية الورقية، فهذا يعني أن كمية أكبر من العملة الورقية أصبحت مطلوبة لشراء الكمية نفسها من الذهب.

لننظر الآن إلى ما يحدث عملياً لتوضيح الفرق بين الذهب والنقود الورقية.

(السعر في الجدول أدناه بالعملية البنغالية، التاكا)



إذا ارتفعت قيمة الذهب، فإن ذلك لا يعني بالضرورة أن الذهب أصبح مصدرًا للفائدة أو الربا. فالذهب نفسه لم يُقرض مقابل زيادة، وإنما ارتفعت قيمته السوقية.

وبالمثل، فإن الزيادة في كمية النقود الورقية الموجودة في الاقتصاد لا تعني بالضرورة أنها فائدة بالمعنى نفسه. فالزيادة في عرض النقود مسألة مختلفة عن الزيادة التي يشترطها المقرض على المقرض مقابل القرض.

وهنا يجب التمييز بين أمرين: الزيادة في قيمة الأصل، والزيادة المشروطة على القرض.

فإذا امتلك شخص قطعة من الذهب ثم ارتفع سعرها في السوق، فإن ارتفاع قيمتها في حد ذاته ليس فائدة أو ربا. وبالمثل، إذا ارتفعت قيمة عقار أو سلعة، فإن الزيادة في سعرها السوقي لا تعني أن مالكة تعامل بالربا.

لكن إذا أقرض شخص آخر كمية معينة من الذهب، ثم اشترط عليه أن يعيد كمية أكبر من الذهب، فإن الزيادة هنا ليست مجرد ارتفاع في سعر الذهب، بل هي زيادة محددة ومشروطة في مقدار ما يجب على المقرض رده.

وينطبق مبدأ مختلف على النقود الورقية. فإذا أقرض شخص آخر 100,000 تাকা واشترط عليه أن يعيد 120,000 تাকা بعد سنة، فإن مبلغ الـ 20,000 الإضافي زيادة مشروطة على أصل القرض.

لكن المشكلة تصبح أكثر تعقيدًا عندما تنخفض القوة الشرائية للنقود بصورة كبيرة. فإذا كان الشخص قد أقرض 100,000 تাকা في وقت كانت فيه هذه الكمية من المال تشتري مقدارًا معينًا من الذهب أو السلع، ثم انخفضت قيمة التাকা بشدة، فإن إعادة 100,000 تাকা بعد فترة طويلة قد تعني في الواقع إعادة قيمة اقتصادية أقل بكثير من القيمة الأصلية.

❧ أدخل عبد الملك بن مروان دنانير ذهبية وفضية فأزيلت صور الأشخاص، ونُقشت كتابات عربية وآيات قرآنية وعبارة «لا إله إلا الله» ❧

وهذا يطرح سؤالاً مهمًا: هل ينبغي النظر إلى القيمة الاسمية للنقود فقط، أم ينبغي أيضًا أخذ تغير قيمتها الشرائية في الاعتبار؟

وبحسب هذا الطرح، فإن الزيادة التي تعكس مجرد تغير قيمة النقود تختلف عن الزيادة التي تُفرض بوصفها عائدًا على القرض. فإذا كانت الزيادة مرتبطة بتعويض الانخفاض الكبير في القوة الشرائية للنقود، فهي تختلف من حيث طبيعتها عن الزيادة التي يطلبها المقرض لمجرد أنه أقرض المال ويريد الحصول على عائد إضافي.

وعليه، فإن ما يُعتبر زيادة في معاملات الذهب لا ينبغي بالضرورة أن يُفهم بالطريقة نفسها في معاملات النقود الورقية. فالذهب أصل مادي له قيمة مستقلة، في حين أن النقود الورقية وسيلة نقدية تستمد قيمتها من النظام النقدي والاقتصادي وثقة المجتمع بها.

ولهذا السبب نقول إن فهم الفرق بين الذهب والنقود الورقية، وبين ارتفاع قيمة الأصل وبين الزيادة المشروطة على القرض، أمر مهم عند دراسة مسألة الربا في الاقتصاد الحديث.

وإذا لم يُفهم هذا الفرق بصورة صحيحة، فقد يخلط الشخص بين أنواع مختلفة من الزيادات المالية، وقد يدخل، من غير قصد، في معاملة تنطوي على الربا ويتعرض لعواقبه.



الوقوف عندها، إذ يزداد عدد الحفاظ عامًا بعد عام، بينما لا ينعكس هذا الازدياد بالقدر نفسه على السلوك الفردي أو الحياة العامة.

ولما كان حل المشكلات والتحديات التي تواجه العالم الإسلامي يتطلب العودة إلى تعاليم القرآن الكريم السامية، فلا بد من التأكيد على أهمية تطبيق منهج هذا الكتاب العظيم والعمل به في تفاصيل حياتنا اليومية لأن القرآن نفسه بين الغاية من إنزاله بقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29].

في مؤلفات السلف الصالح، يؤكد ابن القيم رحمه الله في كتابه "زاد المعاد" على أن العبرة من القرآن الكريم تتأتى من الفهم والعمل، معتبرًا أن تلاوة القرآن وحفظه وسيلتان لمعرفة معانيه. ويرى في

جيلٌ يحفظ القرآن... لكنه لا يعيش بهديه

أسماء مفيد كامل

كاتبة ومترجمة، تلفزيون A. Haber، سوريا



■ لم يشهد تاريخ الأمة الإسلامية عصرًا انتشرت فيه حلقات تحفيظ القرآن الكريم وتيسرت فيه وسائل تعلمه كما هو الحال اليوم. ومع ذلك، فالمتمأمل في واقع المسلمين يلحظ مفارقة تستحق

١١ كانوا يتعلمون عشر آيات، فلا
ينتقلون إلى غيرها حتى يفهموا ما
فيها ويعملوا به ١٢

المحفوظ، بل مقدار ما أحدثه القرآن من أثر في
النفوس والأخلاق والمعاملات. ونحن اليوم أحوج ما
نكون إلى استعادة هذا المنهج التربوي الذي يجمع
بين الحفظ والفهم والعمل.

بمقارنة سنن الأولين من الأصحاب الكرام رضي
الله عنهم مع ما نراه في واقعنا اليوم يتكشف لنا
سبب هذه المفارقة التي نعيشها اليوم، فالكثير
من المسلمين يتعاملون مع القرآن كمادة للحفظ
وإتقان التلاوة، أكثر منه منهجًا لتزكية النفس
وإصلاح السلوك. وقد أسهمت بعض أساليب
التعليم، من حيث لا تقصد، في جعل النجاح يُقاس
بعدد السور المحفوظة، لا بمقدار ما أحدثته الآيات
من أثر في الأخلاق والمعاملات. ومع تسارع إيقاع
الحياة وهيمنة الشاشات وضعف مجالس التدبر،
أصبح كثير من الناس يقرؤون القرآن طلبًا للأجر،
وهو مقصد عظيم، لكنهم لا يمنحون القدر نفسه
من العناية للغاية التي أنزل القرآن من أجلها، وهي
الهداية والتغيير.

ولكن هل يمكن دمج القرآن في الحياة اليومية؟
وهل يمكنه أن يغيّر سلوك الإنسان وتصرفاته؟

الجواب: نعم، بكل تأكيد. فالقرآن الكريم قادر على
أن ينير القلب والعقل والروح.

الوقت ذاته أن أهل القرآن الحقيقيين هم العاملون
به والعالمون بما فيه، وإن لم يحفظوه. وقد شبّه
من يحفظ القرآن دون أن يفهمه أو يعمل به بمن
يصنع سهمًا بإتقان بالغ، ثم لا ينتفع به في الرمي.
كما رجّح أن قراءة القرآن بترتيل وتدبر وتفقه، مع
قلة الكمية المقروءة، أفضل من سرعة القراءة
لمجرد الإكثار منها، لأن التدبر يزيد مرتبة الإيمان
ويرفع قدر العبد عند الله.

لم يكن هذا الفهم غائبًا عن الجيل الأول من
المسلمين، فقد كانوا يتلقون القرآن على أنه منهج
للتغيير قبل أن يكون مادة للحفظ. وقد روي عن عبد
الله بن مسعود رضي الله عنه أنهم كانوا يتعلمون
عشر آيات، فلا ينتقلون إلى غيرها حتى يفهموا ما
فيها ويعملوا به، فكان العلم والعمل يسيران جنبًا
إلى جنب. ولم يكن معيار التفاضل بينهم كثرة

قولاً وعملاً، وتنقله من مجرد حافظ للكلمات إلى مؤمن واع يدرك الغاية مما يقرأ.

أولى هذه الوسائل أن يفهم القارئ كيف يقرأ القرآن. فتلاوة القرآن الكريم وفق أحكام التجويد الصحيحة تملأ القلب بالطمأنينة، والنفوس بالسكينة، والمكان بالبركة، وتجعل الإنسان يشعر بقرب الله وتخفف عنه الحزن والكرب، لما لها من أثر في تهدئة النفس وتثبيتها على طريق الحق.

لكن التلاوة وحدها لا تكفي، فلكي يتحقق الفهم الصحيح للقرآن الكريم، لا بد من التعرف إلى معاني كلماته وتفسيره على يد عالم متخصص، لأن التفسير يكشف أسرار القرآن ويلقي الضوء على المعاني الدقيقة للآيات والسور، فينتقل القارئ من مجرد التلاوة إلى الفهم، ومن الفهم إلى العمل.

ومن أفضل وسائل التدبر أيضًا الإنصات إلى القرآن الكريم بتمعن، سواء بالاستماع إلى تلاوته، أو إلى محاضرة علمية تشرح معانيه، عبر الإنترنت أو في مسجد أو معهد. ويشهد كل طالب علم على الأثر الروحي العميق الذي تركه مجالس القرآن في القلب، وما تعقبه من سكينة وطمأنينة.

وهناك ممارسات يسيرة تعين على تحويل التدبر إلى سلوك، كأن يخصص المسلم بعد كل ورد قرآني دقائق معدودة يسأل فيها نفسه: ما الرسالة التي تحملها هذه الآيات لي اليوم؟ وما الخلق الذي تدعوني إليه؟ وما السلوك الذي ينبغي أن أغیره؟ فمثل هذه المحاسبة اليومية تجعل العلاقة مع القرآن علاقةً متجددة، وتحول القراءة من عادة متكررة إلى رحلة مستمرة في تزكية النفس وإصلاحها. ومع مرور الأيام تصبح هذه المحاسبة عادةً يومية، فيقرأ المسلم القرآن وهو ينتظر أن يخاطبه، لا أن يضيف إلى محفوظاته فحسب. وهنا يبدأ القرآن بأداء دوره الحقيقي في بناء الشخصية.

ولكن ما دور حفظ القرآن وأهميته؟

إن حفظ كلام الله في القلب نعمة عظيمة، فهو يعين



فهو البوصلة التي يهتدي بها الإنسان في رحلة بحثه عن هويته الحقيقية ومعرفة سبب وجوده، وما يطلبه الله منه من واجبات ومسؤوليات، وكيف ينبغي له أن يقضي حياته لينال رضاه.

بعد أن يتعرف المؤمن إلى حقيقة ذاته وعبوديته للمولى جل جلاله، يشعر بقلبه يفيض امتناناً لهذا الكتاب المعجز الذي يملأ حياته بأجمل المعاني وأكثرها إشراقاً، ويجعلها تنبض بالسكينة الروحية بقدر ما تتشرب من الفهم المتبصر.

هناك وسائل عديدة يمكن للمسلم من خلالها أن يبني علاقة صحيحة مع القرآن الكريم، فيصبح البيان الرباني منارةً ترشده إلى الطريق المستقيم

صاحبه على ترديد الآيات عند الشدائد وعلى قيام الليل الذي يمثل أصدق صلة بين العبد وربّه.

كما أن الحفظ يجعل المؤمن يعيش مع القرآن في تفاصيل حياته اليومية، فما أكثر المواقف التي يستحضر فيها آية تناسب ما يمر به، فتكون له عزاءً أو توجيهًا أو تثبيتًا، فيزداد فهمًا لحقيقة الحياة الدنيا. وهنا تتجلى الثمرة الحقيقية للحفظ، حين تتحول الآيات من محفوظات في الذاكرة إلى نور يهدي السلوك ويقود المواقف.

ويبقى السؤال الأهم: كيف نعمل بأحكام القرآن الكريم ونطبقها في حياتنا؟

ينبغي أن يكون القرآن حاضرًا في تفاصيل حياتنا اليومية، فهو كتاب أنزله الله هدىً للبشرية جمعاء. ولذلك فإن القراءة والحفظ والتجويد وسائر العبادات المتعلقة بالقرآن، لا تؤتي ثمارها كاملة إذا لم تقترن بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه، بل قد تكون حجة على صاحبها إذا علم ولم يعمل، أو تعلم ولم ينو الامتثال.

فالقرآن الكريم لا يقتصر على تركية الروح وبناء الجانب الإيماني، بل يقدم للمسلم منهجًا متكاملًا للحياة، يبدأ بالوفاء بالعهود وأحكام المعاملات والاقتراض والمواريث ورد الإساءة بالإحسان ويمتد إلى بناء الأسرة وعقد النكاح وفقه الزكاة والدعوة إلى الله وتربية الأبناء وسائر العلاقات التي تنظم حياة الفرد والمجتمع.

ولا ينبغي أن نكتفي بتعلم القرآن الكريم وفهمه وحفظه والعمل به بل لا بد من تعليمه للآخرين أيضًا.

قد يبدو قول الإنسان: "أنا أعلم القرآن" أمرًا كبيرًا، بينما يمكن أن يبدأ بصورة يسيرة، كدعوة بعض الأصدقاء أو أفراد الأسرة إلى لقاء أسبوعي تُقرأ فيه آيات من القرآن الكريم، ثم تُترجم معانيها أو تُفسّر، ويتحاور الجميع حول كيفية تطبيقها في واقعهم. فمثل هذه المجالس الصغيرة قد تكون من أعظم

💡 على المسلم تخصيص دقائق معدودة يسأل فيها نفسه: ما الرسالة التي تحملها هذه الآيات لي اليوم؟ 🌟

أسباب إحياء الصلة بالقرآن، لأنها تربط العلم بالعمل، وتحوّل التدبر إلى ممارسة عملية.

ما من شك أن الرابطة التي تجمع المسلمين على أساس تدارس القرآن معًا رابطة لا توصف، إنها محبة صادقة وروحانية خالصة لله تعالى، تسمو فوق كل الدوافع والمكاسب الدنيوية.

وربما كان من أكبر التحديات التي تواجه المسلمين اليوم أن القرآن أصبح حاضرًا بقوة في المناسبات، بينما يغيب عن كثير من القرارات اليومية. فنحن نستمع إليه في المساجد ونحفظه في الحلقات ونزين به بيوتنا، لكننا قد نغفل عن استحضاره عند الخصومة أو في المعاملات المالية أو في تربية الأبناء أو عند التعامل مع الجار والزميل والمخالف. والقرآن لا يريد من المسلم أن يعيش معه ساعات محدودة، بل أن يصاحبه في كل المواقف، حتى يصبح ميزانًا يزن به أقواله وأفعاله.

أخيرًا، يحمل القرآن الكريم من المعاني السامية والهدايات العظيمة ما يغذي الروح بالعلم النافع، ويملأ القلب سكينة، ويقود الإنسان إلى حياة يرضى عنها الله. ولن تستعيد الأمة أثر القرآن في واقعها بكثرة الحفاظ مهما بلغوا، وإنما عندما يخرج من بين هؤلاء الحفاظ جيلٌ يتدبر القرآن كما يحفظه، ويعمل به كما يتلوّه ويجعله مرجعًا في أخلاقه وسلوكه وقراراته. فحينئذٍ يتحقق المقصود من نزول القرآن، ويغدو كتاب الله منهجًا للحياة، لا مجرد نصوص تُتلى أو تُحفظ.

التمويل متناهي الصغر البديل: من تعظيم الأرباح إلى نهج المسؤولية الاجتماعية



الدمرة، في حين لا يُولى أدنى اهتمام مماثل لحشد الثروات من أجل القضاء على الفقر وتحسين رفاه الإنسان.

في العقود الماضية، استثمرت الحكومات والمنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية بشكل كبير في جهود الحد من الفقر. وقد جرى الترويج للتمويل متناهي الصغر على نطاق واسع باعتباره أداة فعالة لتمكين الفقراء عن طريق إمكانية الحصول على قروض صغيرة. مع ذلك، لا يزال ملايين الأشخاص حول العالم يعانون من الحرمان والمديونية وانعدام الأمن الاقتصادي. وهذا يطرح سؤالاً مهماً: هل ينبغي أن يظل التمويل متناهي الصغر قائماً أساساً على تحقيق الربح، أم ينبغي إعادة تصويره كنظام يقوم على المسؤولية الاجتماعية؟

تفرض العديد من مؤسسات التمويل متناهي الصغر التقليدية معدلات فائدة سنوية تتجاوز

بقلم: د. شاهجهان خان

النائب السابق لرئيس جامعة آسيا في بنغلاديش، دكا
أستاذ فخري في جامعة جنوب كوينزلاند، أستراليا.



■ رغم التقدم المذهل الذي أحرزته البشرية في العلوم والتكنولوجيا والنمو الاقتصادي العالمي، لا يزال الفقر أحد أكبر التحديات التي تواجه الإنسانية. ففي وقت تتركز فيه ثروات غير مسبوق في أيدي عدد محدود من أصحاب المليارات، بل ظهر حتى أول تريليونيير في العالم، لا يزال ملايين البشر يكافحون من أجل تأمين الغذاء والتعليم والرعاية الصحية والسكن اللائق.

التناقض لافت للنظر. فموارد مالية ضخمة متاحة بسهولة لتمويل الأسلحة المتطورة والحروب

٢٥ التمويل متناهي الصغر نظام يقوم على المسؤولية الاجتماعية

النموذج ممكن.

غالبًا ما يُحتفى ببنغلاديش باعتبارها مهد التمويل متناهي الصغر الحديث. ومع ذلك، ورغم وجود العديد من مؤسسات التمويل متناهي الصغر، لم يُقَصَّ على الفقر. ويعود أحد أسباب ذلك إلى أن هذا التمويل يعمل بدرجة كبيرة ضمن نموذج تجاري يُتوقع فيه من رأس المال تحقيق أقصى عائد مالي ممكن. ورغم أن القضاء على الفقر هو الهدف الأساسي الظاهر من وراء ذلك، فإن تعظيم الأرباح يظل عاملاً مهماً في توجيه العمليات.

نجح نظام الإقراض الجماعي التقليدي في تحسين معدلات السداد من خلال خلق مسؤولية جماعية بين المقترضين. لكن النموذج المالي الأساسي لا يزال يعتمد على فرض الفائدة على أكثر فئات المجتمع تعرضاً للهشاشة الاقتصادية.

ومن الأمور التي غالبًا ما تغيب عن التفكير الاقتصادي التقليدي الاعتراف بأن الأفراد ليسوا مجرد فاعلين اقتصاديين، بل هم أيضًا كائنات اجتماعية. فلكل فرد في المجتمع التزامات تتجاوز حدود النجاح المالي الشخصي. كما أن أنظمة التعليم والاقتصاد الحديثة تشجع عمومًا على تعظيم عوائد الاستثمار، لكنها تولي اهتمامًا أقل بكثير بتنمية روح المسؤولية الاجتماعية.

ونتيجة لذلك، تواجه المجتمعات خطر التحول إلى مجتمعات أكثر فردانية، مع تراجع الحوافز لدى الأغنياء لمساعدة من يواجهون الصعوبات. لذلك ينبغي أن يكمل الرفاه الاقتصادي الرفاه الاجتماعي. فالنجاح المالي يوفر الراحة للأسرة، بينما تعزز

20 في المئة. لكن في ظل نظام المعدل الثابت التقليدي، ينتهي الأمر بالمقترضين غالبًا إلى دفع ما يعادل 40-45 في المئة أو أكثر كفائدة سنوية فعلية. وبالنسبة للأسر الفقيرة ذات الدخل المحدود، يمكن أن تتحول هذه الالتزامات إلى عبء ثقیل.

في المقابل، سيكون وضع المقترضين أفضل بكثير لو اقتصر التزامهم على إعادة مبلغ أصل القرض فقط، على أقساط ميسرة ومن دون فوائد. وبطبيعة الحال، يثير هذا الأمر أسئلة مشروعة: هل يمكن تطبيق نموذج للإقراض من دون فوائد؟ وهل يمكن أن يكون مستدامًا؟ ومن سيموله إذا لم يحقق أية أرباح؟

تعتمد الإجابة على الطريقة التي نحدد بها غاية الثروة ومعنى النجاح الإنساني.

الإنسان ليس مجرد كائن اقتصادي يقتصر هدفه الوحيد على تعظيم العوائد المالية، بل هو أيضًا عضو في المجتمع يتحمل مسؤوليات تجاه الآخرين. ولا ينبغي قياس النجاح الحقيقي فقط بحجم الثروة المتراكمة، وإنما كذلك بمدى مساهمة هذه الثروة في رفاه الآخرين.

عند مساعدة الناس على الخروج من دائرة الفقر، يجب أن يكون الهدف هو الحفاظ على كرامتهم، لا تحقيق الأرباح من معاناتهم. فلماذا يُتوقع من الفقراء أن يعيدوا أكثر مما اقترضوا لمجرد أنهم فقراء؟ فالمجتمع المزدهر حقًا هو الذي تنتشر فيه الثروة على نطاق واسع، لا الذي تزداد فيه تركيزًا في أيدي قلة قليلة.

والسؤال الفلسفي الأعمق بسيط هو: إذا ما كانت عائلاتنا وجيراننا ومجتمعنا يعانون، فهل يمكن للازدهار الفردي وحده أن يحقق السعادة الحقيقية؟

في المجتمعات التي يُقاس فيها النجاح حصريًا بالمعايير المالية، قد يبدو التمويل متناهي الصغر من دون فوائد أمرًا غير واقعي. أما في المجتمعات التي يدرك فيها الناس أهمية المسؤولية الاجتماعية إلى جانب النشاط الاقتصادي، فقيام مثل هذا

هل يمكن تطبيق نموذج للإقراض من دون فوائد؟

المسؤولية الاجتماعية قوة المجتمعات وتخلق انسجامًا دائمًا.

يقدم الإسلام إطارًا شاملاً لتحقيق هذا التوازن من خلال العدالة الاجتماعية والتوزيع العادل للثروة ووصون كرامة الإنسان. فالثروة ليست ملكية شخصية مطلقة، بل أمانة من الله سبحانه وتعالى والناس/الأفراد موكلون عليها لفترة محددة.

توفر الأدوات المالية الإسلامية، بما فيها الزكاة والعُشر والوقف والقرض الحسن (القروض الخالية من الفوائد) والصدقة التطوعية، والممارسات التجارية الأخلاقية الخالية من الربا، آليات عملية للحد من الفقر والحماية الاجتماعية والتنمية المستدامة للمجتمعات. وللأسف، غالبًا ما يُنظر إلى هذه المؤسسات على أنها مجرد واجبات دينية، بدلاً من اعتبارها أدوات اقتصادية قوية قادرة على معالجة الفقر على نطاق واسع.

ولنا في التاريخ أمثلة مشجعة على ذلك. ففي عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، شكلت هذه المبادئ أساسًا لنظام الرعاية الاجتماعية. وقد بلغ تطبيقها ذروته في خلافة عمر بن عبد العزيز، حيث انخفض الفقر إلى درجة أصبح معها العثور على مستحقين للزكاة أمرًا بالغ الصعوبة كما تذكر كتب التاريخ. ورغم اختلاف الظروف التاريخية عن واقع اليوم، إلا أن هذه التجارب لا تزال مصدر إلهام للمقاربات القائمة على الإيمان لتحقيق العدالة الاقتصادية.

ومن بين هذه الأدوات المالية الإسلامية، يستحق القرض الحسن، أي القرض الخالي من الفوائد

والقائم على الإحسان، اهتمامًا أكبر بكثير من المؤسسات المعنية في بنغلاديش.

في إطار هذا النموذج، يساهم الأفراد والمنظمات بأموال تُودع في مؤسسة تقدم قروضًا بلا فوائد للفقراء. يعيد المقرض فقط مبلغ أصل القرض في فترة زمنية متفق عليها. أما النفقات الإدارية فتُغطى بشكل منفصل من المانحين، عادة من خلال مساهمة إضافية تتراوح بين 8 و10 في المئة، بما يضمن عدم تحميل المقرضين أي رسوم تمويل أو أعباء إدارية.

في المقابل، يمكن للمساهمين تقديم أموال قابلة للاسترداد لفترة محددة، إلى جانب دعم النفقات الإدارية. وبعد سداد القروض، يصبح رأس المال الأصلي متاحًا لمساعدة مقرضين جدد، مما يؤدي إلى إنشاء صندوق دوّار مستدام يستمر في خدمة المجتمعات المحرومة.

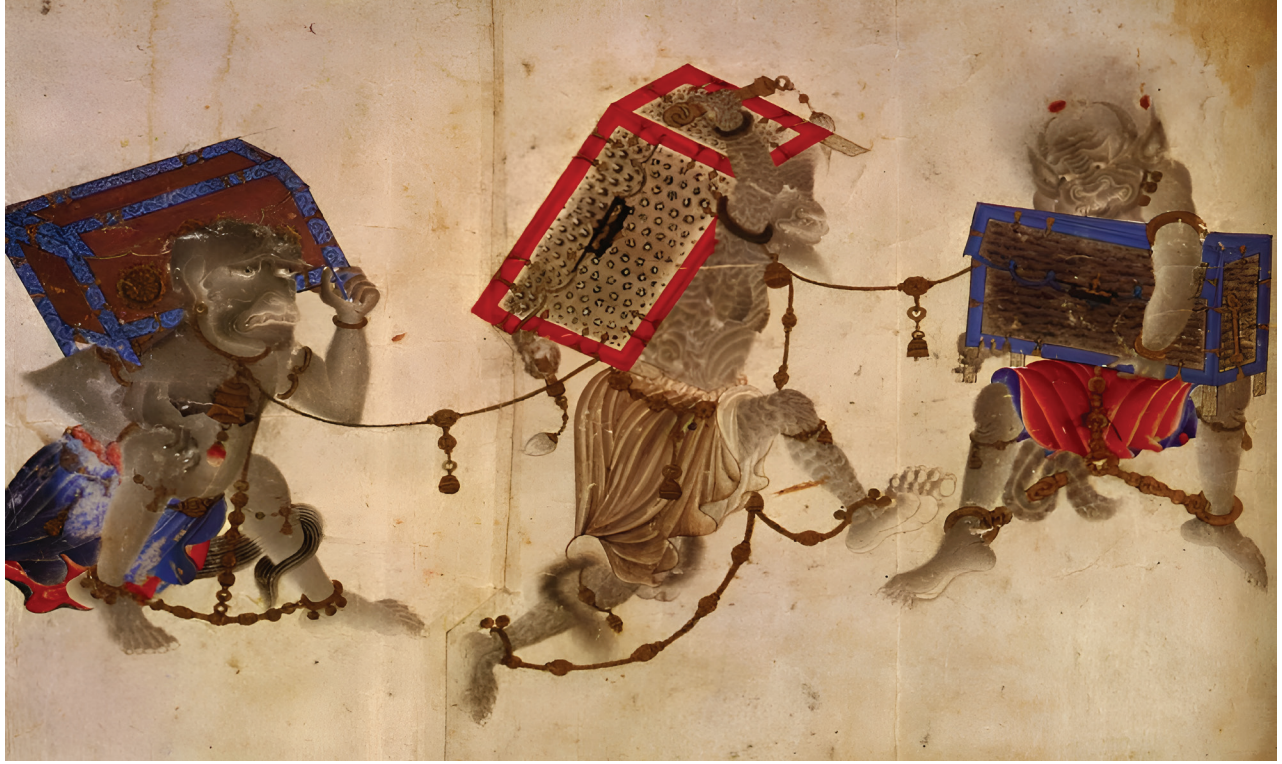
لدينا بالفعل نماذج صغيرة من هذا النوع في بنغلاديش، لكن البلاد لم تطور بعد مؤسسة موثوقة وشفافة ومدارة باحتراف، قادرة على تطبيق نظام القرض الحسن على نطاق وطني.

إن إضفاء الطابع المؤسسي على نموذج التمويل متناهي الصغر القائم على المسؤولية الاجتماعية والخالي من الفوائد، والمستلهم من تقاليد المدينة المنورة، يمكن أن يقدم إضافة مهمة إلى التمويل متناهي الصغر التقليدي. فهو لا يستهدف استبدال الأنظمة المالية القائمة، بل يقدم نهجًا بديلًا يقوم على التعاطف والمسؤولية المشتركة وكرامة الإنسان.

تمتلك بنغلاديش الموارد المالية والتقاليد الدينية اللازمة لإنجاح مثل هذه المبادرة وما تحتاج إليه هو قيادة ذات رؤية وثقة عامة ونزاهة مؤسساتية. فإذا اجتمعت هذه العناصر، يمكننا إنشاء نظام منظم للقرض الحسن والإسهام في تحسين حياة ملايين الأشخاص المحرومين، وإثبات أن مكافحة الفقر لا يجب أن تكون مدفوعة بالربح فقط، بل يمكن أن تقوم أيضًا على المسؤولية الاجتماعية.

إبليس في القرآن الكريم:

العداوة والإغواء والمسؤولية الأخلاقية



مخلوقات من الجن أو الشياطين مقيدة بالأغلال تحمل صناديق الكنوز. فنان غير معروف



د. عبد المنان

إمام ورئيس الجمعية الإسلامية لشمال فنلندا، مدينة أولو



الكلمات المفتاحية: الشيطان (إبليس)، اللاهوت
القرآني، الإرادة الحرة، المسؤولية الأخلاقية، الإغواء،
علم الكلام الإسلامي

المقدمة

يحتل الشيطان مكانة مهمة في النص القرآني،
لا سيما في النقاشات المتعلقة بالطاعة والتمرد

■ يقدم القرآن الشيطان أو إبليس على أنه العدو
المعلن للإنسان، لكن دوره محدد بدقة ضمن إطار
السيادة الإلهية والمسؤولية الأخلاقية للإنسان.

تتناول هذه المقالة التصوير القرآني للشيطان من
خلال تحليل موضوعي لتمرده وهويته وأساليبه في
التضليل وحدود سلطانه. وتخلص أن القرآن لا يصور
الشيطان كقوة مستقلة للشر تنافس الله، بل هو
مخلوق مسؤول أخلاقي، يتوقف تأثيره على اختيار
الإنسان وإذن الله. ومن خلال التأكيد في آن واحد على
سلطان الله ومسؤولية الإنسان، يضع القرآن الشر في
سياق الابتلاء الأخلاقي، لا في إطار ثنائية كونية بين
قوتين متعارضتين.

آدم. يخبرنا القرآن أن الله جل وعلا أمر الملائكة بالسجود لآدم، فسجدوا جميعاً إلا إبليس (الأعراف: 11-12). وكان رفضه نابغاً من الكبر، إذ رأى نفسه أفضل من آدم لأنه خُلق من نار، في حين خُلق آدم من طين.

تكتسب هذه الحادثة أهميتها بأنها تصوّر سقوط الشيطان سقوطاً أخلاقياً، لا قصوراً في المعرفة. لقد أدرك إبليس سلطان الله لكنه اختار العصيان عمداً. فتمرده فعل من أفعال الكبر، وقد أصبح الاستعلاء السبب الأساسي في سقوطه. وبعد رفضه الأمر الإلهي، طلب إمهاله إلى يوم القيامة وتعهّد علاوة عليه بإضلال البشر (الأعراف: 14-17). وهكذا نشأت عداوته للبشر من الحقد وتعظيم الذات، لا من أي خلل في الطبيعة الإنسانية.

ويؤسس هذا السرد لدرس عقائدي مفاده أن أساس العصيان فساد الأخلاق والكبر. ويصبح الشيطان النموذج الأبرز للتمرد على الأمر الإلهي، في حين تبين قصة آدم إمكانية التوبة ونيل المغفرة الإلهية

هوية إبليس ومكانته الوجودية

يحدد القرآن إبليس صراحةً بأنه من الجن (الكهف: 50). ولهذا التمييز أهمية خاصة، لأن الجن، بخلاف الملائكة، يتمتعون بالإرادة الحرة، وهم قادرون على الطاعة والعصيان معاً. وعليه، فتمرد الشيطان يتوافق مع طبيعته بصفته مخلوقاً مسؤولاً أخلاقياً.

يصف القرآن الشيطان في مواضع كثيرة بأنه «عدو مبين» للإنسان (البقرة: 36؛ ياسين: 60). ويؤكد هذا الوصف وضوح عداوته، كما أنه تحذير من الغفلة عنها. ويحمل مصطلح «الشيطان» نفسه دلالات مرتبطة بالتمرد والابتعاد عن الهداية الإلهية. وفي بعض المواضع، لا يُطلق هذا المصطلح على الجن وحدهم، بل يشمل أيضاً البشر الذين يعملون على إشاعة الشر والفساد، بما يوحي بأن السلوك الشيطاني يمكن أن يتجلى كذلك في سلوك الإنسان.

يعزز هذا التصوير الرؤية القرآنية التي تنفي عن الشر أنه قوة كونية مستقلة؛ فالشر، بالأحرى، يتجسد من خلال اختيارات وأفعال تتعارض مع



والمسؤولية الأخلاقية. ويصفه القرآن باستمرار بأنه عدو مبين للإنسان، مع التأكيد في الوقت نفسه على أن قدرته محدودة وخاضعة لإرادة الله. ويختلف هذا التصوير عن التصورات الثنائية للخير والشر، التي تتنافس فيها قوتان متعارضتان على السيطرة على العالم. فالقرآن، بدلاً من ذلك، يقدّم الشيطان بصفته مخلوقاً أفعاله جزء من الابتلاء الإلهي للإنسان في الحياة.

ويكشف تناول القرآن قراءةً موضوعية أن أهمية الشيطان لا تكمن في امتلاكه قوة مستقلة، بل في دوره ومهمته في الإغواء وسعيه إلى إضلال البشر. فتمرده وأساليبه في التضليل وإخفاقه النهائي تبرز موضوعات عقائدية أساسية تتصل بالإرادة الحرة والمسائلة والاعتماد على الله. ومن ثم، يستخدم النص القرآني الشيطان وسيلةً لإبراز عواقب الكبر والعصيان، مع إعادة تأكيد سيادة الله المطلقة.

عصيان إبليس

ترجع جذور عداوة الشيطان للإنسان إلى قصة خلق

الهداية الإلهية.

الخديعة إحدى السمات المركزية لنشاط الشيطان في القرآن. فتأثيره في الإنسان يحدث عبر الإيحاء والوسوسة وتزيين الباطل بكل أشكاله وصوره، لا من خلال الإكراه. وكثيراً ما يصور القرآن الشيطان بأنه "يزين" ارتكاب الشر ويجعله جذاباً، ويحث الأفراد على تجاهل الهداية الإلهية (الأعراف: 20؛ النحل: 63).

تشكل قصة إغواء آدم وزوجه المثل التأسيسي على ذلك، فإقناع الشيطان لهما العصيان كان بتزيين ذلك على أنه سبيل إلى الخلود والرفعة. الشيطان لم يجبرهما على فعل العصيان! بل استغل مواطن الضعف والرغبات الإنسانية لديهما. علينا اتباع هذا النمط نموذجاً لفهم فكرة الإغواء حيثما يرد في القرآن

يربط القرآن كذلك تأثير اتباع الشيطان بممارسات ذات ضرر على الصحة الروحية والاجتماعية، ومنها الخمر والميسر وإثارة العداوة بين الناس (المائدة: 90-91). والشريعة تدين هذه الأفعال لأنها تصرف الأفراد عن ذكر الله وتضعف الانضباط الأخلاقي وغيرها من الأسباب المعروفة.

مع ذلك، يؤكد القرآن أن الإغواء لا يرفع المسؤولية عن الإنسان. فالبشر قادرون دائماً على مقاومة ضلال الشيطان، لا سيما بالتمسك بالإيمان والالتزام بحبل الله ووطاعته.

حدود سلطان الشيطان

من أهم الموضوعات العقائدية المتعلقة بالشيطان هي محدودية قدرته. فالقرآن يرفض القول بأن الشيطان يمتلك سلطاناً مستقلاً على البشر. و يبلغ هذا المبدأ أوضح تعبير له في الآية 22 من سورة إبراهيم: (وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)، حيث يقر الشيطان يوم القيامة بأنه لم يفعل سوى أن دعا الناس إلى العصيان، وأنهم هم الذين اختاروا الاستجابة لدعوته.

يؤسس هذا الإقرار صلة مباشرة بين الإرادة الحرة والمسؤولية. فلا يستطيع البشر أن ينسبوا أفعالهم

❖ إبليس هو العدو المعلن للإنسان لكن دوره محدد بدقة ضمن إطار السيادة الإلهية ❖

إلى الشيطان وحده، لأن تأثيره محصور في الإغواء والإيحاء. أما السلطان المطلق فهو لله وحده، وقد وُعد المؤمنون المخلصون بالحماية من سلطان الشيطان عليهم (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) (النحل: 99).

وعليه، تتجنب الرؤية القرآنية كلاً من الجبر والثنائية. فالشيطان يؤدي دور المبتلي أو الممتحن، لا دور المنافس للقدرة الإلهية، وتبقى المسؤولية الأخلاقية ثابتة على عاتق الفرد.

الحماية الروحية والخاتمة

يقرر القرآن وسائل عملية لمقاومة تأثير الشيطان وفي مقدمتها ذكر الله والاستعاذة به (فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) (النحل: 98). تعمل هذه الممارسات على تنمية الوعي الروحي وتعزيز قدرة المؤمن على مقاومة الإغواء. وبدلاً من ترسيخ الخوف، يحث القرآن على اليقظة والانضباط الأخلاقي والثقة بالهداية الإلهية.

وفي التصوير القرآني للشيطان في نهاية المطاف وظيفة عقائدية. فإبليس لا يُقدّم بوصفه مصدرًا مستقلاً للشر، بل بصفته مخلوقاً تكبر وطغى، ويتوقف تأثيره على استجابة الإنسان له. ويبرز دوره حقيقة الابتلاء الأخلاقي، مع إعادة تأكيد سيادة الله وحرية الإنسان في اختيار الطاعة أو العصيان.

ومن خلال وضع الشيطان ضمن الإطار الأوسع للسلطان الإلهي والمسؤولية الإنسانية، يحول القرآن الصراع مع الشر إلى تحدٍّ أخلاقي وروحي. والدرس المركزي واضح: الشيطان قد يغوي الإنسان ويضله، لكن مسؤولية الفعل الأخلاقي تبقى على عاتق البشر، الذين دُعوا إلى طلب الهداية من الله والثبات

السيطرة على البشر من ميكافيللي إلى الخوارزميات الذكية

جهداً في بسط السيطرة الكاملة على رقاب البشر وعقولهم ومقدراتهم ومصائرهم.

من الشائع حين يرد ذكر الفيلسوف الإيطالي نيكولو ميكافيللي (1469-1527) أن يتبادر إلى الذهن المبدأ الرئيسي الذي يختصر الفلسفة الميكافيللية في أبأس تحليل نفعي واقعي: "الغاية تبرر الوسيلة". مع أن هذه الفكرة بالتحديد -والتي يعدها خصومه في الفكر السياسي المثلبة الرئيسية في الواقعية السياسية التي يتبناها- ترد بأشكال متنوعة ومبررة في فلسفات سياسية عدة، سيما المعاصرة منها، دون أن يجد معتنقوها أدنى حاجة لتبريرها؛ إذ ترد تحت مسميات مقبولة عديدة مثل: "مصلحة الدولة العليا - للضرورات أحكام - المصلحة العامة - الشرعية الثورية - المصلحة الوطنية - تقديم



محمد برو

باحث ومدير مركز صدى لاستطلاع الرأي. سوريا



■ "الإنسان الذي يريد أن يمارس الفضيلة في كل شيء، لا بد أن يفنى بين هذا الحشد الهائل ممن لا فضيلة فيهم"، بهذه العبارة الصادمة صاغ نيكولو ميكافيللي قبل خمسة قرون رؤيته الفلسفية التي صارت واحدة من أخطر لحظات الانفصال بين القيم الأخلاقية والممارسة السياسية في تاريخ الفكر الإنساني. ذلك الافتراق المفصلي سيتحول، بعد قرون عدة بفعل التأويل والتطبيق والتحويل، إلى منهج عملي ومدونة سلوك للطغاة الذين لا يألون

مصلحة المجموع على مصلحة الفرد".

وفي حين يعتبر الكثيرون أن كتاب "الأمير" هو المؤسس لهذا النموذج الاستبدادي لمفهوم سيطرة الحاكم على رعيته وقطع دابر أي محاولة لخلخلة هذه السيطرة، فإن تاريخ الفكر يزخر بسابقات تأسيسية سبقت أطروحة ميكافيللي في كتابه "الأمير" بل ومهدت له، ولا غرو أنه أفاد منها بشكل مباشر أو عبر طرق غير مباشرة. ولو رجعنا إلى تاريخ ما كتب في باب الواقعية السياسية سنجد على سبيل المثال لا الحصر:

الفيلسوف والقائد العسكري الأثيني ثوسيديس (460 - 400 ق.م)، حيث يمكن اعتباره "أبا الواقعية السياسية"، والذي يلخص روح فكرته بمقولته الشهيرة: "الأقوياء يفعلون ما تسمح به قوتهم، والضعفاء يخضعون لما يجب عليهم تحمله". ويمكن الركون إلى أن هذا أول تدوين تبريري عرفته البشرية لمنطق القوة العرية عن أي غطاء أخلاقي، والتي لا مناص للحاكم من أن يتسلح بها.

قدم المعلم الأول أرسطو (384-322 ق.م) في كتابه "السياسة" وصفاً تحليلياً وظيفياً للكيفية التي يدير بها الطغاة عروشهم ويحافظون عليها، وعمل على نقدها لافتقارها إلى المعايير الأخلاقية والقيمية في رعاية الناس وحكمهم. وما قام به ميكافيللي تالياً أنه اعتمد على هذا التحليل الأرسطي وجعله دليلاً تشغيلياً، نافياً عنه النقد الأرسطي الذي هو غاية أرسطو من كتابه.

الفيلسوف ابن خلدون، رائد من رواد علم الاجتماع السياسي الواقعي، طالما تحدث عن التوازن المستقل الذي لم يلتق. فنظريته في العصبية السياسية -التي تجعل من التماسك القبلي، وليس من الفضيلة ولا من الشرعية الدينية، أساساً فعلياً يرتكز إليه الملك وتستقيم عبره الإمارة- هي الأساس الذي دارت حوله رؤية ابن خلدون لاستقرار الملك أو الحكم. وهو يصف دورة الحكم أو دورة

من أخطر خصائص «الأمير» الخوارزمي» الحديث أنه عابر للقارات والدول والحدود، خلافاً للأمير الميكافيللي المتواضع

الدولة الخلدونية عبر أطوارها: "التأسيس فالترف فالانحلال". وقد فسر وطور العديد من الحكام بعد ابن خلدون رؤيته على أن الحكم لا يستقر بحماية ودعم العصبية الواحدة القوية وحسب، بل بتفتيت سائر العصبيات المنافسة، وتمكين عصبية القصر الحاكم في مواجهة عصبية الأمة.

كل ما سلف يفضي إلى نقطة محورية طالما غُزلت حولها سياساتها الأنظمة الحاكمة، بدءاً من الإمارات الضيقة عبوراً بالإمبراطوريات العظمى وصولاً إلى الدولة الحديثة، ألا وهي إحكام السيطرة الكاملة ونفي احتمالات المنافسة أو الصراع. مع أن هذا المقصد يخالف سنن التاريخ في استمرار الصراع، وأن المنجز البشري مهما علا في سلم التفوق ومدارج الكمال إنما يحوي جرثومة فئائه بداخله، وهكذا جرت السنن منذ بدء الخليقة، ولهذا سميت الحواضر الكبرى بالدول لأنها تدول وتزول.

من ميكافيللي وسابقيه إلى يومنا هذا لم يتوقف السباق والتطور والتنافس لحيازة قصب السبق في القدرة المتفوقة على السيطرة الكاملة، حتى إن الناظر إلى الدهاء الذي تدير به أنظمة اليوم شعوبها سيقف مشدوهاً وهو ينظر إليها كيف تتعدى الحدود وتكاد تعبر الأزمنة. سيرى هذا الناظر في كتاب "الأمير" ومعاصريه وسابقيه محض بدايات طفولية ساذجة قياساً لما وصلت إليه الأجهزة الحاكمة اليوم. وربما كان من أخطر الخصائص



العتاية على الضبط والتحكم والتوجيه، وإلا انفلتت الملايين وأنتجت تسونامي بشرياً لا يبقى ولا يذر. وهذه المتلازمة بين تقدم قدرة الفرد وموازاتها بقوة ملائمة للضبط، تشبه تنامي التطور الذي نشهده في سرعة العربات؛ فكلما زادت سرعتها زادت قدرة أدوات التحكم والضبط والفرملة بشكل موازٍ لها تماماً وإلا حلت الكارثة.

في مطلع الألفية الثالثة كانت السيطرة متحققة بالمعرفة التي تقترب من الكمال في تقصي اتجاهات

التي يتمتع بها "الأمير الخوارزمي" الحديث أنه عابر للقارات والدول والحدود، خلافاً للأمير الميكيفيللي المتواضع الذي لم يكن ليحلم بتخطي عتبات إمارة أو مملكة بعينها.

مع تسارع التطور الذي نعيشه اليوم واتساع الجغرافيا وتزايد الأعداد السكانية وتعزيز قدرة الفرد الواحد على التواصل من حجرة نومه وإيصال صوته ومدى تأثيره إلى مئات الملايين في دقيقة واحدة، صار من اللازم بالضرورة امتلاك القدرة

🔥 السلطة الحديثة لا تتجلى في قمع الأجساد، بل في قدرتها على إنتاج المعرفة التي تُشكل السلوك وتوجه الذوات (ميشيل فوكو) 🔥

لتتسق مع شعارات الحرية والديمقراطية المعلنة بشكل من الأشكال، لولا خلق مبرر المجموعات الإرهابية وبث الرعب عالمياً من المجموعات التي تتحرك بإشراف أنظمة استخباراتية عالمية لتبرير عنف الدول العظمى.

اليوم، ومع انفلات عقال السباق المتسارع بين أنظمة الذكاء الاصطناعي المبذول بالمجان لعامة الناس وخاصتهم، صار بالإمكان فهم ما كان يجري عبر سنوات مديدة سابقة من قدرة تلك الأنظمة على إعادة تشكيل العقول وبرمجة النفوس على نحو يخدم الاتجاه العام، الذي لم تعد معرفة انكشاف أدواته تجدي نفعاً في مواجهته أو مقاومته أو حتى التخفيف من مدى تأثيره. فالعالم الذي نحياه اليوم عالم مستلب منزوع الإمكانيات، عالم لم تعد أدوات الترويج والتضليل والمكناات الدعائية تكفي لتمام حلقة السيطرة عليه، وها نحن نتجه بخطى سريعة إلى أن نتحول إلى روبوتات بخلايا حية؛ حيث تقوم تلك المنظومات فائقة التطور بإعادة تشكيلنا من الداخل على صعيد المعرفة والقيم وحتى الأحاسيس.

ولم يعد خافياً على أحد تلك القدرة الهائلة لتلك الخوادم العملاقة على جمع وحفظ ومقاطعة البيانات التي تتدفق طوعاً وكرهاً من أجهزتنا على مدار الثواني، لترسم أدق الخرائط التي يمكن ترجيح اتجاهاتها بنسبة ارتياب لا تكاد تُرى. في السابق، كان الأمير يبتكر الحيلة تلو الأخرى للتحكم بردود الأفعال المحتملة ونصب الفخاخ لها، بينما يقوم "الأمير



القوى الفاعلة في الخرائط السياسية والاقتصادية عامة، مع وجود استثناءات نادرة. ولا نعلم على وجه اليقين هل هذه الاستثناءات وجدت في غفلة من الأجهزة الرقابية، أم أن التغافل عنها كان جزءاً من استراتيجيات إدارة الصراع وخلق الأعداء اللازمين لتبرير اتجاهات عنفية وتضييق في القوانين، كما يستثمر "العالم الحر" اليوم في ابتكاره الأفظع: "الأصوليات الدينية والإرهاب"، والذي يبرر من خلاله تدمير دول وأمم برمتها، وفرض قوانين جائرة وتقييد للحريات ما كانت لهذه الآليات الاستثنائية

الخوارزمي "اليوم بتشكيل البشر على نحو ملائم يسهل فيه التحكم بهم بل وتوجيههم، ولا يضره في ذلك انتباههم وكشفهم لآلياته؛ فالجزء الذي ينكشف من استراتيجياته هو الجزء الذي انتهت فاعليته، في الوقت الذي انتقلت فيه الخوارزميات المتحكممة إلى طور أكثر عمقاً وتعقيداً.

على سبيل المثال، تتلاعب هذه الخوارزميات المتقدمة في هدم قواعد الموثوقية بمصادر المعرفة المعهودة، بحيث يصبح الخبر ونقيضه والمصادقية وعكسها على درجة واحدة من الاحتمالات المتضاربة، في أبسط الأشياء وأعقدها. فالقمح، وفق بعض المراجع، علة في الكثير من الأمراض، وهو في مراجع مناظرة أخرى سبيل الغذاء الصحي الأفضل الذي لا يُستغنى عنه. هل نفعتنا لقاحات الكورونا أم هي سبيل لتقليص عدد البشر والتخلص من قطاعات بعينها؟ هل بدأت المفاعيل لتلك اللقاحات بالظهور فعلاً عبر تكرار حالات الموت غير المعللة أم أنها تحتاج لبضع سنوات أخرى لتؤتي ثمارها المدمرة؟ كذلك في التحليلات السياسية والروايات التاريخية الحديثة وغيرها كثير مما يترك المتابع في لبال من أمره لا يعرف أين يتجه يمنة أو يسرة، وهكذا يصبح سهل القيادة كلي الخضوع. لقد طورت التقانات المتفوقة النسخة الحديثة من كتاب "الأمير"، بحيث لم تعد النسخة الأولية منه تصلح إلا لأصحاب المزارع الصغيرة أو محلات تجارة الخضراوات في أسواق المدينة.

هذا التحول النوعي في القدرة على السيطرة وإعادة التشكيل خلق بموازاته، وبحكم الضرورة، تحولات نوعية في الديناميات السياسية والاجتماعية، ضارباً بعرض الحائط بمنظومات أخلاقية وقيمية وقانونية طالما كانت الرافعة والحامية من الانهيار لمجتمعات لم يبقَ لديها ما تدافع عنه وتمسك به إلا حصونها الأخلاقية. هذه التحولات أنتجت آلهة متحكممة تنتصب بسلطتها فوق أطلال الهياكل القديمة، فلا يبقى لديها أدنى اعتبار لحقوق الأفراد ولا لمرونة التوازن بين سلطة الرقابة وقيم الحرية

المنتهكة، ليتحول الإنسان وفق منظورها الجديد إلى محض سلعة تُقاس مدى ربحيتها وخسارتها في سوق الشرائح الإلكترونية والمليارات الرقمية المتدفقة من هنا إلى هناك، وتستحيل الأسواق والسلع بمن فيها ("الإنسان المهدور والمستباح") إلى سلع في أسواق السندات التي تعلو وتهبط كمن يتخبطه الشيطان من المس.

في الطور الذي نعيشه اليوم والطور الذي نستقبله آنفاً عبر التسارع المذهل لسيطرة الخوارزميات ومن ورائها من يوجه ويخلق تلك الخوارزميات المتحكممة، سيصبح الإنسان كائناً منصاعاً يمشي في العماء طوعاً عبر التوجيهات التي يتلقاها من أجهزة حوسبية عملاقة توصف بأنها الجيل الأذكى من الأدوات، فتستحيل حياة الإنسان إلى سلسلة قسرية من التأثيرات والمنعكسات اللاإرادية المصاغة بتزيين وتسويق مغرٍ يوحي له أنه يختار بحرية كافية، في الوقت الذي يكون فيه مساقاً بكليته كما يُساق من يمشي خلال نومه. والأبعد من هذا أننا اليوم مؤهلون للقبول في قادم الأيام بتحرر هذه النماذج من الذكاء الاصطناعي وقد انفلتت من قبضة الإنسان المتحكم وصارت ذاتية التصرف والتطوير، وبذا سيتحول غضبنا ومعارضتنا تجاه الآلة الصماء، وسيكون من يتحكم بحقيقة الأمر بها بعيداً كل البعد عن ساحة الصراع تلك.

ربما تكون النقد والمعادن الثمينة آخر أدوات القوة التي تُسحب من أيدينا اليوم بشكل تدريجي؛ فهي، علاوة على إحكام الرقابة حولها بذريعة عدم تسربها إلى منظمات إرهابية، توشك أن تتحول لقيمة مخزونة في مصارف تشرف عليها الأجهزة المتحكممة بعناية فائقة، ويمكن تجميدها أو حجبها بشكل آلي وفق منظومة من الخوارزميات، ونصبح نحن البشر المستهلكين محض عبيد عاجزين عن دفع قيمة علبة دواء ضروري، أو دفع إيجار مسكن دون موافقاتها المشروطة. كما يصبح مفهوم الملكية المصان بجميع الدساتير مجرد شعار أجوف مفرغ من مضمونه وفاعليته، ويصبح الانصياع



شعار «مبادئ الشعب الثلاثة» في الصين الشعبية

لهذا "السيستم" المتأله السبيل الوحيد للعيش بسلام. كل هذا مهدت له الدولة الحديثة بنموذجها الغربي في تفتيت الأسرة، والتي كانت آخر معاقل الحماية الاجتماعية، وأصبحت المجتمعات في سيرورة تكاد تكون حتمية باتجاه تحرير الفرد من جميع الروابط والالتزامات والانتماءات، ليبقى عبداً خالص الخضوع لـ "السيستم" الذي يدير الحروب والمقدرات والانتخابات وتوازنات القوى وأسعار النفط والذهب وغيرها من العوامل التي يصعب على الإنسان العادي التكهن بمآلاتها ونتائجها البعيدة.

هل هذه هي نهاية البشرية، أم أن هناك مفاعيل لا نعلم كيف ستظهر وتغير الاتجاهات وتعيد الأمور إلى نصابها ليعود الإنسان العادي لحياته الطبيعية؟

كل المقدمات التاريخية منذ وجود الإنسان على سطح هذا الكوكب تؤكد أن لكل شيء آفة من جنسه "حتى الحديد سطا عليه المبرد"، وأن انتهاء الصراع وخضوع العالم لقبطية سيبرانية واحدة أمر يتجاوز عتبات المستحيل. فعلى الضفة الثانية من هذا المشهد، هناك قوى واعية وقوانين فاعلة بعضها يعمل بدون تدخل بشري، ستكسر هذه الحلقة المعيبة وتذكي أوار الصراع الذي يكفل للحياة الإنسانية والطبيعية استمرارها. وما تزال الفرصة قائمة في أن يأخذ دعاة الحرية والمكافحون لأجل حقوق الإنسان دورهم الفاعل في حمأة هذه التحولات الكارثية التي نترقب نيازكها الفاتلة. تبقى الحقيقة التي لا مناص منها أن الحياة وجريان نهرها القوي أبقي، وأن الإنسان بيديه العاريتين طالما استطاع إخضاع جميع ما يتهدد وجوده من قوى وطواغيت.

إعادة إعمار سوريا.. إسباني يوثق البعد الإنساني بالصورة

بقلم: هيئة التحرير

ما يحدث للمجتمع بعد الحرب، وكيف يحاول السوريون إعادة بناء حياتهم وبلدهم.

حصل سانشيز على ثلاث جوائز في مسابقة «جوائز إسطنبول لأفضل صورة» لعام 2026 (İSTANBUL PHOTO AWARDS) عن أعماله تناولت سوريا وأفغانستان. وكان من أبرز أعماله الفائزة مشروع «إعادة إعمار سوريا»، الذي يعكس اهتمامه بما يحدث في المجتمع السوري بعد سنوات طويلة من الحرب.

يرى المصور الوثائقي الإسباني ديبغو إيبارا سانشيز Diego Ibarra Sanchez أن المشروع الفوتوغرافي لا يبدأ عندما يضغط المصور على زر الغالق، بل قبل ذلك بكثير. فالصورة، بالنسبة إليه، هي نتيجة لمسار طويل من البحث والتفكير وإجراء المقابلات وبناء العلاقات مع الأشخاص الذين ستناولهم القصة. وهذا ما يتجلى بوضوح في عمله المتواصل على سوريا، حيث لم يكتفِ بتصوير آثار الحرب ودمارها، بل سعى إلى توثيق

للمجتمع عندما تنتهي الحرب؟ وكيف يعيش الناس مع آثارها؟ وكيف يعيدون بناء حياتهم وذاكراتهم بعد تجربة العنف والدمار؟

إعادة بناء المجتمع

يرتبط مشروع «إعادة إعمار سوريا» لدى سانشيز بفكرة أوسع تتمثل في محاولة فهم قدرة المجتمعات على استعادة حياتها بعد النزاعات. فالمصور لا يريد أن يروي قصة الحرب عبر مشاهد العنف فقط، وإنما يريد أيضًا توثيق المرحلة التي تأتي بعدها.

وفي هذا السياق، ينظر إلى السوريين كأشخاص يعيدون تشكيل حياتهم في ظروف صعبة، ويبحثون عن طرق لاستعادة العلاقات الاجتماعية وبناء جسور جديدة فيما بينهم.

هنا تتحول الكاميرا من أداة لتسجيل الأحداث إلى وسيلة لفهم التحولات التي يعيشها المجتمع. فالصورة لا تسجل ما يراه المصور أمامه فحسب، بل تحاول أن تكشف ما وراء المشهد: كيف تغيرت حياة الناس؟ ماذا بقي من آثار الحرب؟ ما الذي

سوريا بعد الحرب: ما الذي يحدث بعد توقف القتال؟

خلال عمله في سوريا، صور سانشيز لصالح صحيفة «نيويورك تايمز» الحياة اليومية في عدد من المدن والمناطق السورية، من بينها اللاذقية وإدلب وحلب ودمشق. لم يكن هدفه مجرد تسجيل مشاهد الدمار أو توثيق آثار العمليات العسكرية، وإنما محاولة فهم ما يحدث بعد ذلك: كيف يستعيد الناس حياتهم؟ وكيف يعيد المجتمع بناء نفسه؟ وكيف يمكن لبلد أنهكته الحرب أن يستعيد علاقاته وذاكرته وإحساسه بالحياة الطبيعية؟

ومن هنا جاء تركيزه على الحياة اليومية للسوريين وعلى التفاصيل التي قد تبدو عادية لكنها تصبح ذات دلالة خاصة في مجتمع خرج من سنوات من الصراع. لإعادة البناء، في نظره، لا تعني تشييد الأبنية وإصلاح البنية التحتية فحسب، وإنما تشمل أيضًا إعادة بناء الروابط الاجتماعية واستعادة الثقة وخلق علاقات جديدة واستعادة الإحساس بالانتماء.

ولهذا السبب، لا يتعامل سانشيز مع سوريا باعتبارها مجرد مشهد للحرب، بل مجتمعًا يعيش مرحلة ما بعد الحرب ويحاول أن يجد طريقه إلى المستقبل.

من الدمار إلى الحياة اليومية

يبتعد سانشيز في مشروعه السوري عن الاقتصار على الصور التقليدية التي تختزل البلدان التي شهدت حروبًا في الخراب والدمار والضحايا. فهو يريد أن يُظهر ما يحدث عندما يصبح الناس قادرين، رغم كل شيء، على العودة إلى حياتهم اليومية.

وتكمن أهمية هذا النوع من التصوير في أنه ينقل الاهتمام من لحظة الحرب نفسها إلى آثارها الممتدة. فالحرب لا تنتهي بمجرد توقف إطلاق النار؛ بل تستمر آثارها في حياة الناس وفي علاقاتهم وفي ذاكرتهم، وسيظهر تأثيرها في الأجيال اللاحقة.

من خلال تصويره لسوريا، يحاول المصور أن يطرح سؤالاً يتجاوز توثيق الحرب نفسها: ماذا يحدث



يحاولون استعادته أو إعادة بنائه؟

ماذا يحدث للمجتمع عندما تنتهي الحرب؟ وكيف يعيش الناس مع آثارها؟

سوريا. فالصور التي تبدو للوهلة الأولى بعيدة عن مشاهد الحرب المباشرة يمكن أن تحمل في داخلها آثارًا عميقة للصراع، لأنها توثق محاولة الناس العودة إلى الحياة واستعادة ما فقدوه.

ويرى سانشيز أن تصوير هذه اللحظات يساعد على بناء ذاكرة بصرية للحرب وما بعدها، ذاكرة لا تقتصر على مشاهد الموت والدمار، وإنما تشمل كذلك الحياة التي استمرت رغم الحرب.

بين الألم والأمل

يقول سانشيز إنه لا يمكن اختزال سوريا ومعاناة السوريين في صورة واحدة. فهو يسعى إلى الجمع

ويؤكد سانشيز أن عمله في سوريا جعله أكثر اهتمامًا بهذه المرحلة التي غالبًا ما تحظى باهتمام أقل من مرحلة الحرب نفسها. فالعالم يولي اهتمامًا كبيرًا بأخبار المعارك والقصف والدمار، لكن حياة الناس أيضًا تحتاج أيضًا إلى أن تُروى وتُوثق.

الحرب لا تنتهي بانتهاء المعارك

ينطلق سانشيز في رؤيته من قناعة بأن انتهاء القتال لا يعني انتهاء الحرب وآثارها. فالصدمة النفسية والذكريات وفقدان الأحبة وتدمير البيوت والمؤسسات واضطراب العلاقات الاجتماعية، كلها آثار قد تستمر لسنوات طويلة.

ولهذا لا يرى أن مهمة المصور تنتهي عندما تتوقف المعارك. على العكس، قد تبدأ مرحلة أخرى من العمل الوثائقي، يصبح فيها السؤال الأساسي هو كيف يعيش الناس مع ما خلفته الحرب.

ومن هنا تأتي أهمية تصوير الحياة اليومية في



وجعلها مرئية. فعندما تُختزل الحرب الضحايا والمهجرين والمنازل المدمرة في أرقام، تختفي التجارب الإنسانية الفردية. أما الصورة، فيمكنها أن تعيد الإنسان إلى مركز القصة.

ولهذا لا يكتفي سانشيز بالتقاط صورة جيدة من الناحية الفنية، بل يهتم بالسياق الذي ولدت فيه الصورة، وبالعلاقة التي بناها مع الأشخاص الذين يظهرون فيها، وبالطريقة التي سيستقبل بها المشاهد قصتهم.

لماذا يبدأ المشروع قبل التقاط الصورة؟

بالنسبة إلى سانشيز، لا يمكن الوصول إلى هذا النوع من التصوير بمجرد حمل الكاميرا والتوجه إلى موقع الحدث. فالمشروع يبدأ قبل الضغط على زر الغالق، من خلال البحث وفهم الموضوع وإجراء المقابلات والتعرف إلى الأشخاص والسياق الذي يعيشون فيه.



لا يمكن اختزال سوريا ومعاناة السوريين في صورة واحدة

بين الألم والأمل، وبين آثار الماضي ومحاولات بناء المستقبل.

ولهذا يولي أهمية للصور التي تظهر الناس وهم يحاولون استعادة حياتهم، لأن هذه الصور تسمح للمشاهد برؤية جانب آخر من المجتمعات التي عاشت النزاعات.

ولا يعني ذلك تجاهل المعاناة أو التقليل من حجم الدمار، بل يعني توسيع القصة بحيث لا تصبح الحرب هي الهوية الوحيدة للمجتمع الذي عاشها.

وفي هذا السياق، تبدو فكرة مشروع «إعادة الإعمار» ذات معنى يتجاوز الجانب المادي؛ فهي تشمل الإنسان نفسه وذكرته وعلاقاته وقدرته على تصور مستقبل مختلف.

الصورة بوصفها مسؤولية

يربط سانشيز عمله في سوريا بمسألة أخلاقية أساسية: كيف يمكن للمصور توثيق معاناة الآخرين دون أن يحولهم إلى مجرد موضوع للصورة؟

ويؤكد أن احترام الأشخاص الذين يصورهم عنصر أساسي في العمل الوثائقي. فالمصور يتعامل مع قصص حقيقية ومع أشخاص يعيشون آثار الحرب بصورة مباشرة، ولذلك ينبغي ألا يفقد الإنسان مكانته داخل الصورة.

من هذا المنطلق، يرى أن المصورين يستطيعون إظهار الوجوه التي تحولها الحرب إلى مجرد أرقام

علاقاتهم من جديد.

ومن خلال ذلك، تصبح سوريا في مشروعه التصويري ليست مجرد بلد شهد حربًا، بل مجتمعًا يمر بتحول عميق، ويحاول أن يتعامل مع إرث سنوات الصراع وأن يجد طريقًا إلى المستقبل.

وهنا تكمن قوة الصورة الوثائقية: أن تجعل المشاهد يرى ما قد لا يظهر في الأخبار اليومية، وأن تنقل إليه ليس فقط ما حدث، وإنما أيضًا ما يحدث بعد ذلك.

وفي نهاية المطاف، مشروع «إعادة إعمار سوريا» ليس قصة عن الأبنية التي تهدمت فحسب، بل عن البشر الذين يحاولون إعادة بناء حياتهم. وهي، بالنسبة إلى سانشيز، قصة لا يمكن اختزالها في صورة واحدة، لأن المشروع نفسه يبدأ قبل التقاط الصورة ويستمر بعدها، مثلما تستمر آثار الحرب في حياة الناس حتى بعد أن تصمت الأسلحة.

وهذا ما يفسر طبيعة عمله طويل الأمد في سوريا. فبدل أن يأتي إلى المكان لالتقاط صور سريعة عن الحرب، حاول فهم المجتمع الذي يصوره، وسعى لمتابعة قصته مع مرور الوقت. ويرى أن الصورة الوثائقية الحقيقية تحتاج إلى وقت، لأن بناء الثقة مع الأشخاص وفهم قصصهم لا يمكن اختزاله في لحظة واحدة.

سوريا.. قصة مستمرة

تكشف تجربة سانشيز في سوريا عن تصور مختلف للتصوير الصحفي: فالقصة لا تبدأ مع القصف ولا تنتهي بتوقفه. هناك حياة كاملة بين هذين الحدين وبعدهما.

ففي اللاذقية وإدلب وحلب ودمشق، لم يبحث فقط عن آثار الدمار، بل عن الأشخاص الذين يعيشون وسط هذه الآثار، وعن تفاصيل حياتهم اليومية، وعن محاولاتهم استعادة حياتهم وبناء



هل بلفكم من فساد لفتنا حديثاً



Image courtesy of Neda Matian

تعددت في القرآن الكريم معاني كلمة "الفساد"، نذكر أربعاً منها على سبيل المثال: المعصية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: 11]؛ والهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22]؛ والخراب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: 34]؛ والمنكر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: 116] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: 56].

والمفسدة: خلاف المصلحة، وقيل: "فَسَدَ كَنَصَرَ...، ضِدُّ صَلَحَ فَهُوَ فَاسِدٌ" (الفاموس المحيط). "وقد

شيرين دقوري
ماجستير فلسفة، دبلوم دراسات
إسلامية. سوريا

■ حذرنا الله جلّ وعلا في كتابه الحكيم من "الفساد" بأنواعه وصوره كافة، ومع ذلك إن نظرنا إلى عالمنا ألفيناه يسبح في عالم فاسد مفسد يسعى فيه الناس، جمعاً وفرداً، للفساد اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وأخلاقياً وسلوكياً وفكرياً ودينياً وعلمياً وفنياً ولغوياً، مصداقه قوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64].

اِخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُهُمْ فِي مَعْنَاهُ، فَقِيلَ: فَسَدَ الشَّيْءُ: بَطَلَ وَاضْمَحَلَّ وَيَكُونُ بِمَعْنَى تَغَيَّرَ " (تاج العروس من جواهر القاموس).

والفساد اصطلاحاً: خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضاده الصلاح ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة (الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن). وقال البيضاوي: "والفساد: خروج الشيء عن الاعتدال". (أنوار التنزيل وأسرار التأويل).

وقال المناوي في "التوقيف": "الفساد: هو انتقاض صورة الشيء". وابن الجوزي قال في الفساد إنه: "تغير الشيء عما كان عليه من الصلاح، وقد يقال في الشيء مع قيام ذاته، ويقال فيه مع انتقاضها، ويقال فيه إذا بطل وزال. ويقال في الأقوال إنها فاسدة إذا كانت غير منتظمة، وفي الأفعال إذا لم يعتد بها" (نزهة الأعين النواظر).

وقد جعل الله تعالى اتباع الهوى سبباً لفساد السماوات والأرض وتخريباً للعالم وإفناءه، كما ذكر الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ...﴾ [المؤمنون: 71]، (التفسير الكبير). فما أن اتبعت الناس أهواءها حتى انتشر في زمننا مذاهب فكرية تنوعت وتكاثرت بتنوع العقول البشرية، كالعلمانية والليبرالية والاشتراكية والوجودية... مذاهب في هدفها، وكما تقدم نفسها، أتت كمحاولات لإصلاح البشرية وتنظيم حياة الناس، يطرح كل مشرب منها نفسه بوصفه المذهب الأصلح والأفضل للشعوب جمعاء؛ إلا أن التاريخ أثبت أنه في فرضها على شعوب مختلفة البيئة عن تلك التي نشأت فيها تلك الأفكار، وإهمال الشروط الاجتماعية لكل شعب وخصوصية ثقافته وهويته أدى إلى الفساد والإفساد في الإنسان وما يتعلق به من مناحي الحياة جمعاء، ومن ذاك الباب نفهم أن تلك المذاهب لم تكن إلا أهواء شعواء.

خير مثال ما كانت عليه الدولة السورية المتوحشة حيث كنا الشهود النيام على أقصى أنواع الفساد في دولة "الوحدة والحرية والاشتراكية"، حتى

﴿إنما يفسد الناس نصف متكلم الذي يفسد الأديان ونصف فقيه الذي يفسد البلدان﴾

استحكمت حلقات الفساد في المؤسسات الرسمية والخاصة، في كل وزارة ومؤسسة وهيئة؛ فساد في الأموال الخاصة والعامة، فساد التعليم، فساد الإدارة والتشغيل، فساد المناهج، فساد الفقهاء والمشايخ والمعلمين والمهندسين والأطباء، فساد النفوس والأخلاق ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 11-12].

الفساد سبب مباشر للقضاء على الأمم وهدم حضارتهم وتدمير عمرانهم، فصلاح الأمة وفسادها مرتبطان باطراد مع بقاءها أو فناءها، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ [الإسراء: 4-5]؛ في إشارة إلى أن دمار بني إسرائيل كان بسبب فسادهم وإفسادهم في الأرض. وقد قضى الله تعالى أن لا يرث الأرض إلا أمة تحافظ على صلاحها ولا تسعى للفساد سبيلاً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105].

ونكاد لا نبالغ إن قلنا إن المسؤول الأبرز عن أنواع الفساد أجمع هو فساد اللغة؛ فهو حجر الرجي لكل فساد، فساد اللغة الذي أبعدنا في المقام الأول عن المنهج القويم في فهم لغة القرآن الكريم، ذلك الكتاب الحامل في طياته لغة الكون وحروفه، اللغة الضابطة الجامعة الشاملة لعلاقة الإنسان بالكون وعلاقته بالآخرين.

سقوط في الردى لفساد في اللغة

لا يوجد أي نشاط إنساني دون لغة، واللغة أصل الفكر ورمز المجتمع الذي يفصح عن العلاقات الشخصية والقيم المثلى لأمة ما، فالألفاظ بدلالاتها تشير إلى مستوى المجتمع؛ بل إن "كلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات" كما أخبرنا الجاحظ في "البيان والتبيين". من اللغة المنطوقة والمكتوبة والمفهومة وأساليب الكلام والمصطلحات ومقاربتها مع واقع الحال يمكننا التعرف على مقام صاحب اللغة ومكانته، وإن أخفى فكره وغير وحوّر في الألفاظ والتراكيب.

فرضيتي هنا تتمثل في أن قول ما في جوهر الإنسان يعني أنه يتحكم بذاته ليصير إلى التحكم بما هو خارج عنه من حياة سياسية واقتصادية ودينية أقرب وأحكم؛ فإن لم يتحكم بلغته ويتمكن منها وينظمها ويحافظ على صلاحها واستقامتها فإن ذلك أدعى إلى انفلات وفساد وانحيار كل ما هو خارج عنه

وأشبه فساد اللغة بفساد القلوب المريضة بالحق والكرهية والفجور؛ فكما أن فساد القلب يفضي إلى فساد الجسد كله؛ كذلك إن اللغة مضغة إن فسدت فسد الإنسان بفكره وسلوكه وأخلاقه ومناحي الحياة كافة، المرتبطة بكيونته ووجوده وهويته، "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب" (البخاري ومسلم).

ونعلم أن الأمم تعبر عن الانتماء والهوية والمشاعر والشعائر عبر لغاتها؛ بل إن من بين ما يُستدل به على حضارة أمة وأقول نجمها هو مدى ازدهار لغتها أو انحطاطها، وفساد اللغة يكمن في تغيرها وتحولها عما كانت عليه من الصلاح والاستقامة والانتظام. حين تفسد لغة أمة ما أو يصيبها الخل والنقص فإن تلك الأمة مهددة بالانحطاط والتلاشي والهلاك، لفقدان هويتها وجوهر إنسانيتها. فقدان معاني الألفاظ وتحولها إلى لغة مبتذلة، وتحول الكلمات إلى كل ما هو أجوف خالٍ من الدلالات أو غريب عنها من فساد اللغة.

حال فساد لغة أمتنا وانحراف الألفاظ عن معانيها

يشبه حال السابقين، الذي كان سببه المباشر دخول المستعربين إلى الأمة، كما يقول ابن خلدون في تشريحه لأمراض الدول والأمم: "استمر فساد ملكة اللسان العربي في الحركات المسماة عند أهل النحو بالإعراب بملازمة العجم [من الفرس والترک] ومخالطتهم حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم، ميلاً مع هجنة المستعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية..." (المقدمة، علم اللغة). فإن فسدت اللغة فسد معها علم البيان الذي ثمرته "فهم الإعجاز من القرآن، لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكمال مع الكلام فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه". (ابن خلدون، علم البيان) وزد على تدهور حالنا اليوم عما كانت عليه أمتنا تغلغل لغات المستشرقين الجدد والقدامى بأشكالهم ومدارسهم المختلفة.

بدأ انحراف الفكر عند المسلمين عندما ابتعدوا عن ضوابط المصطلحات، بل غرقوا في فوضى المصطلحات والكلمات، وتغلغل اللغة الاستشرافية إلى عقولهم حتى تمكنت وفرضت قوانينها؛ لغة الغالب على لغة المغلوب من المستعمرين والمستشرقين والأعاجم والمحتلين، "فإن السياسة الاستعمارية قائمة فيه [يقصد المعجم السياسي للعرب] على خداع الطريقة في حل مشاكله، فيحلونها ويعقدونها في نص واحد؛ ويثبت الكلام الذي يتفقون عليه أن المراد منه زوال الخلاف، ويثبت العمل بعد ذلك أن المراد كان زوال المقاومة [...] ولهم من بعض الكلمات السياسية، كما لهم من بعض الرجال السياسيين؛ فيكون الرجل من دهاتهم رجلاً كالناس، وهو عندهم مسمار دقوه في أرض كذا أو مملكة كذا، ويكون اللفظ لفظاً كاللغة، وهو مسمار دقوه في وثيقة أو معاهدة" (الرافعي، المعجم السياسي).

نتج من ذلك اغتراب الدال (المصطلح) عن المدلول (المفهوم)، فإن كان الاصطلاح لغة يعني: "الصلح، تصالح القوم بينهم. والصلح السلم، وقد اصطالحوا وصالحو واصالحوا أي اتفقوا وتوافقوا"،

💡 سر الكلام في إفادة المعنى وإلا فهو كالموات (ابن خلدون) 🌟

ومعانيها، بل بموضع الرجولة من تلك الألفاظ؛ فإن قيل "باشا" فهذه الكلمة هي الاختراع الاجتماعي العظيم في أمم الألفاظ؛ ومعناها العلمي: قوة ألف فدان أو أكثر أو أقل؛ ويقابلها في أمم الأعمال الكبيرة لفظة "آلة البخارية" ومعناها العلمي: قوة كذا وكذا حصاناً أو أقل أو أكثر" (وحي القلم).

المجتمع إذن يصبغ خصائصه وصفاته على لغته؛ الكلمات والألفاظ تتماشى مع ذاك النظام السياسي والاجتماعي والديني... وعندما يتغير النظام السياسي تتحول وتتبدل اللغة لتلائمه، فيفرض كلمات ولغة ويلغي أو ينفي آخر. ومن بين الأوهام الكبيرة التي نشأنا عليها في ظل تلك النظم السياسية والاجتماعية والدينية الغابرة ما ضجت به حقول لغتنا من المبالغات والتضخيمات؛ فتجرعنا الكذب والدجل وتلاعبنا بالمعاني والألفاظ لاستعمالها في النفاق والغش، إلى أن أحاطت بلغتنا شكلاً ومضموناً، دالاً ومدلولاً، وخلقنا معانٍ لمصطلحات كانت سبباً في تغيير سلوك الناس وتوجههم، وفي حرف مسار أمة ومصيرها...

غدا الابتذال سمة خطب السياسيين وبياناتهم، واصطبغت مساعي المؤسسات والمنظمات المدعية للدفاع عن حقوق الإنسان بصبغة خالية من الإفادة مليئة بالابتذال في لغتها منطوقة ومفهومة، فعلت أصوات التنديد الناعقة، وغطت كلمات منمقة في كامل مكياجها وزينتها، والمحافظة بالتأكيد على مكانتها في قواميس الحقوق الإنسانية وكتيباتها التنظيرية إلا أنها ليست سوى كلمات لم تهجر حروفها الخبيثة في أروقة مكاتب تلك المنظمات، وبات سمعنا ملوثاً بعبارات بلغت من الإسفاف حد التواطؤ على إنسانيتنا وأسباب وجودنا، كمثل قولهم "واجه السوريون قصفاً عنيفاً" وكأن هناك

فإن المسلمين أنفسهم أصبحوا في فهم بعضهم بعضاً مغتربين، لا تصالح ولا توافق على كثير من المدلولات اللغوية؛ لكل منا فهمه للألفاظ والمصطلحات والمدلولات، حتى بلغ الاختلاف حد التناقض والتضاد والتنافر والتفاسد في اللغة، ما يفصح عن اختلاف وخصام وتنافر وفساد في الفكر والعقل والسلوك على رأسها. وكيف بذلك سيرسخون في علوم الدين، وهم بعيدون عن علوم اللغة (من علوم النحو والصرف والبيان والبلاغة) عماد فهم القرآن الكريم والحديث الشريف، حتى أضحو في فساد لغتهم غارقون ساعون في فساد دينهم مسرعون! و"أعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيتاً، ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق، وأيضاً فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب". شيخ الإسلام ابن تيمية.

لغة الابتذال والإسفاف والاغتراب عن المعاني... لغتنا؟

اللغة ركيزة جوهرية للتعبير عن ثقافة المجتمع وفكره. هناك تناسب طردي بين لغة المجتمع الإنساني وتطوراته الحضارية والفكرية والاجتماعية والثورية.

للكلام حيز زمني ومكاني. في زماننا وبعض أمكنتنا لم تعد تتطابق اللغة وحال الناس ومقتضى واقعهم. الصادق هو مَنْ طابق كلامه الحقيقة والواقع، وواقعنا وما هو ظاهر للعامة والخاصة من العيان والغيب مختلف عن العمليات المعرفية الخاصة بنا الاختلاف تاماً. لغتنا تعكس حالنا، تفضحنا، تقيمنا وتقومنا

كلمات لها مظهر المنفعة وليس لها من معناها مبلغاً، انسحبت على مظاهر حياتنا كلها. الرفاعي يعبر في هذا الخصوص خير تعبير قائلًا: "إن الشعب الذي لا يجد أعمالاً كبيرة يتمجد بها هو الذي تُخترع له الألفاظ الكبيرة ليتلها بها؛ وأنه متى ضعف إدراك الأمة لم يكن التفات بين الرجال بفضائل الرجولة



انقلبت المعاني على أعقابها، ولم يطابق الكلام مقتضى الأحوال ولسانها، وصار لكل منا قاموساً خاصاً، لغة لا يفهم بها لغة الآخر. وإلى الآن -مثلاً- أقف طويلاً في عقد مقارنة سريعة بين لفظة "الائتلاف" في إشارة إلى "الائتلاف الوطني للمعارضة السورية"، وبين معناها وحقيقتها المغايرة تماماً للفظها! وأسأل هل توافقنا على دال "الائتلاف" واتفقنا على مدلوله وجوهره وحقيقته التي من المفروض أن تتطابق والواقع؟! ناهيك عن دخول مصطلحات جديدة لبيانات وخطب المعارضة مثل: الحرية والدولة المدنية والانتقال السلمي للسلطة وحقوق الإنسان... مصطلحات لم تتعد أن تكون مجرد ألفاظ مبهمة جوفاء تغاير مقتضى الحال ولسانه متنافرة في العقول مختلفة، لا هي انتظمت وتصالحت مع معناها ولا غدت متفق عليها. وهل نظام الممانعة والمقاوم للمشروع الصهيوني-إمبريالي أو النظام العلماني والحداثي عن منظومة لغتنا ببعيد؟ أفلا تبصرون؟

انقلاب المعاني من أسوأ ما فتك بنا منذ عهود، ولا زالت مصيبتنا حاضرة حضور الابتذال والتطرف؛ فكم سمعنا بلفظة "السلام" التي لم تدل سوى على الذل والهوان والرضوخ لشروط حياة الأعادي والاستعمار.

قصفٌ رحيماً وآخر عنيفاً! وقولهم "عبر السياسي/ القانوني / الحقوقي/ عن قلقه إزاء المجازر الوحشية في سورية" الفعل = مجازر وحشية، رد الفعل = قلق! ثم بعد القلق نجده يتقلب في ظلمات الألفاظ بعضها فوق بعض: يندد، يستنكر، يدين... ماذا؟ يدين مقتل مليون شخص وتهجير الملايين منهم وتشريدهم وتعذيب عشرات الآلاف واغتصاب النساء والأطفال والرجال، وتدمير البنى التحتية والفوقية للبلد، وارتكاب جرائم حرب!!

استخدموا لغة عقيمة خاوية من المعاني والأصول، أعلنوا انقلابهم على عصر الفساد والفجور والمفسدين الفجرة لكنهم أنفسهم حملوا قيم الفساد حد الإفصاح عن لغتهم الفاسدة في أبلغ بيان وأنمق عبارة، و"الكلام الذي هو العبارة والخطاب، إنما سره وروحه في إفادة المعنى، وأما إن كان مهملاً فهو كالموات الذي لا عبرة به" (ابن خلدون، بيان المطبوع من الكلام والمصنوع).

وأدعوكم إلى وقفة تأملية مع ألفاظ اصطلاح عليها استعملت في غير ما أريد بها: الكرامة، الثورة، الإحسان، الحكمة... والمُختلف في مفهومها. خضنا في المبالغة والألفاظ التضخيمية والتهويلية حد الثمالة. لفرط ما ألم باللغة من فساد فتك بعقولنا ووجداننا،

”طائرات مجهولة الهوية“!

وإن شئنا الخروج إلى دائرة لغة العالم الآخر، فلا أدل على ما أقول ما بتنا نسمعه بكرة وعشياً ما سُمي بالحرب الكونية على ”الإرهاب“، الإرهاب ذاك الذي لا نعرف له رسماً واسماً إلا في إطار الإسلام السني. تلك اللغة المتوافقة والمتصالحة المعاني مع لغة نظام الأسد. أين إرهاب نظام الأسد نفسه؟ أو إرهاب الميليشيات الشيعية المدعومة من إيران والتي سُميت بـ”القوات غير الحكومية“؟! وإرهاب الحرس الثوري الإيراني؟ إرهاب الروس في البوسنة والهرسك وسورية؟ إرهاب الأمريكان ضد الهنود الحمر والعراق وسورية؟ نكاد لا نقرأ لها حرفاً ولو كان ذاك الحرف الابن البار للغتهم الفاسدة المفسدة!

ثم إن هؤلاء الذين ملأوا الأجواء بكلامهم وأصواتهم لمحاربة ”الإرهاب“، لم نسمع لهم ركزاً عندما مكنوا للفساد والمفسدين والإرهابيين في توليهم للسلطة التي نهبت مقدرات البلاد وأهلكت أنفس العباد، بل زادت على التمكين أن أضفت عليها شرعية داخلية فوق شرعيتها الخارجية في انقلاب عسكري جائر عُبر عنه بـ”الثورة التصحيحية المجيدة“، صفقت لها الأيادي وطأطأت لها الرؤوس، ولا زالت تؤمن بها بعض العقول الكثيرة!

كيفية لغوية غريبة عن لغتنا وعقولنا

من أسباب فساد لغتنا كما وصف ابن خلدون تمام الوصف: ”أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفية أخرى غير الكيفية التي كانت للعرب، فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفية العرب أيضاً فاختلط عليه الأمر، فأخذ من هذه وهذه، فاستحدث ملكته وكانت ناقصة عن الأولى“ (المقدمة: في أن اللغة ملكة صناعية) فما بال ابن خلدون بالتأثير الهائل والضخم، المباشر وغير المباشر، للتقنيات المتعددة من فضائيات وانترنت ومواقع إلكترونية ومدونات، الذي يقبع تحت نيره أسماعنا وعقولنا فيشوهها ويحرف في ألفاظها ويفسد عليها مشربها ومقصودها؟

وكلمة ”مفاوضات“ وهي في حقيقتها إهدارٌ للوقت والجهود وإزهاقٌ للأنفس والأجساد... وفي المعجم الثوري اليومي بتنا نألف مصطلح ”المصالحة“ الذي يعني ”التصافي والتصالح والتسامح والإصلاح وإزالة كل أسباب الخصومة والعداء بعد حرب طويلة منهكة بين طرفين متحاربين“، هذا يعني أن المصالحة هي تصالح الثورة ”الثورة على النظام“ مع النظام، أو تصالح النظام مع الثورة، وفي حقيقتها هي تسليم وإخضاع المناطق والسلاح وحتى الأنفس للنظام، فهل يبقى لمعنى التصالح مكانة؟ وهل يمكن إزالة أسباب الخصوم بين النظام الفاجر والثورة؟ ألا نعي أن حال وقوع المصالحة فإن دال الثورة قد انتفى عن مدلوله، وباتت المصالحة من طرف الثورة ليست إلا استسلام وتسليم وهزيمة، بل مسٌ من الشيطان يصيب الكرامة؟

وقس على ذلك مصطلح ”الهدن“، ففي معناه السياسي ”تهادن القوم أي تصالحو وأوقفوا حربهم“، هي ”مصالحة بعد الحرب، أي فترة تعقب الحرب يتهيا فيها الطرفان/ الجيشان المتحاربان للصالح وترك الحرب، ولها شروط خاصة بين المتحاربين“. ومن معانيها ”الدعة والسكون“ وما يحدث على أرض الشام ليس سوى ”هدنة على دخن“، لعدم سلامة النيات دعةً وسكوناً، أو لفساد القلوب والعقول؛ ففي جوهر الكلمة استسلام وتسليم لمدن وقرى وأرواح. هي مصالحة بين طرفين من المفترض أنهما متكافآن، كون الهدنة في أصلها بين طرفين يوجد بينهما توازن يصعب كسره؛ بمعنى هي ”استراحة محارب“. فبينما يرتاح النظام ويستجمع قواه ويعود من جديد قوياً متجدداً صارماً متوحشاً، تكون الفصائل والقوى الثورية مرتاحة من حيث التسليم والدعة وهذوء الجبهات والتخلي عن الثورة وقيمتها. ثم إنه عند عقد هدنة ما في أية منطقة ما فإن الضمان الضامن لردع النظام وإخضاعه لصالح الثورة وقيمتها معدوم، فلا وجود لأوراق ضغط بيد القوى الثورية، والأُنكى وجود قوى ثالثة روسية وإيرانية وإسرائيلية تستبيحنا أرضاً وسماً، وتملك الأحقية في ضرب مناطق الثوار وقتل المدنيين وقصفهم وإفناءهم تحت مسمى



يروجون لأكاذيبهم ويتلاعبون بالمصطلحات والألفاظ والمعاني ويتأولون على الله ظناً منهم أنهم أهل علم وصلاح، قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: 33]. شيخ الإسلام ابن تيمية نهبنا على الفساد في نظرية الأنصاف عنده، حين قال: "إنما يفسد الناس؛ نصف متكلم الذي يفسد الأديان، ونصف فقيه الذي يفسد البلدان، ونصف نحوي الذي يفسد اللسان، ونصف طبيب الذي يفسد الأبدان" (الفتوى الحموية).

المتعهدون الدينيون أدخلونا في فوضى قيمية ودينية هائلة حين سقطوا في الخلط بين تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف، اللذان لهما أدواتهما وشروطهما وأسسهما ورجالهما، حيث وضع أهل القرآن أسساً للتفسير أهمها العلم بعلم القرآن وعلوم الحديث، ومنها؛ علوم اللغة (البيان والبلاغة والصرف والنحو)، وعلم أسباب النزول، والآيات المكية والمدنية، والمتشابه من الآيات والمحكم منها، والعلم بالسيرة النبوية... قال تعالى: ﴿مَنْ الذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ

الكيفيات الأخرى الغربية عنا التي خضعنا لها مؤخراً وبشراهة نلتقي معها في لغة الفيسبوك والتويتر، في حالهما وطريقتهما وثقافتهما المفروضة على العقول عنفاً حيث امتلكت سلطة وقوة على الكيفيات اللغوية الأخرى؛ فآلية تفكيرنا والتعبير عن لغتنا غدت مرتبهة كلها بشروطهما. تسليم وتبني مطلق لكل ما يُدَوَّن وينفث وينقل من منابر منفلة لمجاهيل من المغمورين والمشاهير، ولجنا معها في فوضوية المنابر والمدونات وغرقنا في عشوائية الأفكار والمصطلحات، وانتبهنا-وربما لم ينتبه بعض منا- أننا بتنا ذرات في مجرة جرفتنا إلى واد سحيق من مروجي تمييع الدين والسياسة والأخلاق.

طُمسَت قيمنا ومبادئنا وشوّه ديننا، وأغرقنا في وحول من الانفلات الأخلاقي، وأستمترت استباحة المروءة والحشمة والحياء وضجت وسائل التواصل الاجتماعي ومواقع الإنترنت بالمتعهدين الدينيين (المتوافرين بنقمة على هواء ASK FM)، وخبراء التجميل السياسي، والثوار المنتفضون يفتون وينشرون المعلقات دون علم ودراية ورواية. أنصاف الفقهاء وأنصاف العلماء وأنصاف العقول

وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْئًا بِالسِّنِّتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ ﴿[النساء: 46]﴾، وقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ السِّنِّتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 78]، أقول قد خلطوا بين ذاك وبين التدبر القرآني المفتوح لأهل العامة والخاصة، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: 53]؛ فلكل شخص هذا الحق في قراءة الآيات وتدبرها والبوح بما فتح على قلبه، لكننا لنا الحق بأن نأخذ منه ونرد عليه، والله على كل شيء شهيد.

لوسائل التواصل الاجتماعي وجهها الأسود كذلك في فساد اللغة الكاشف لفساد صاحب تلك اللغة؛ من استعمال اللغة المحكية المبتذلة، إلى الكتابة بالأحرف اللاتينية للجميل العربية، ونشر كبير وواسع للأكاذيب والأراجيف والمبالغات في الألفاظ والمعاني... بل مصطلحات انتقلت من بيئتها لتحل ضيفة ثقيلة على رصيدنا المعرفي، سرعان ما أصبحت مقيمة راسخة وهي التي عن هويتنا غريبة المفهوم والمنطوق ناهيك عن غربة المنهج، بعضها يحمل طابعاً دينياً وبعضها الآخر علمانياً وما بعد حدائي وما بعد سلفي وما بعد الحجاب!!!

ثم نجد كتاباً لمقالات وأصحاب مدونات وعلى الصفحات الشخصية يبيحون الانفصال بين اللغة أو الفكرة المنشودة، وبين صورة الشخص المرفقة بتلك المقالة في أتم صورة! اختلاف وتنافر بين الألفاظ والكلمات ومقتضى الحال حين تتنافس أغلب الصور بتقديم هندامها أجمله وأتمه، وتنتشر النساء كالفراش الميثوث بمكياجها الباهر مع لمسات "الفوتوشوب" والابتسامات تعلو الصورة وبخلفيات طبيعية تعطي انطباعاً أن صاحبها موجود -وبكثرة- في أجمل أماكن الأرض على الإطلاق، ثم تصك عقلك حين تكتشف أن وراء هذه الابتسامة الخبيثة الجاذبة مقالاً وكلمات تخبرنا عن كارثة حلب أو ملحمتها... سواء! أو عن مصير أمتنا المكلومة في مصاب السوريين ومأساتهم وتخاذل العرب والعجم وبني الأحمر والأصفر وانهيار أخلاق النظام العالمي

والتنظيمات المحلية!

رحم الله زمناً ساد فيها أخلاق الرجال (من النساء والرجال)، لم نكن نعرف من وجوههم وتصاويرهم إلا ما كان يرسمه وينحته لنا المتخيلون ممن كانوا فيهم، ومع ذلك نكب نقرأ لهم بجديّة ونهم، حتى اخترقت ألفاظهم وأفكارهم عقولنا وسكنت معانيها وجداننا معلنة تصالحها مع مقتضى حالنا ووجودنا، فتطابق الوجدان والوجود في انسجام ولسان حال كما قال أبو تمام:

كذا فَلَجِلَّ الخَطْبُ وَلَيَفْدَح الأَمْرُ
فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَأْوُهَا غُذُرُ

لسنا أهل حضارة وعمران ولا أمتنا في المصاف الأول بين الأمم؛ ولا أدل على ذلك إلا فساد لغتنا وغربتها عن معانيها وعن واقعنا وبلوغها حد الإسفاف والانحطاط. إن نقصاً في العلوم والصنائع يصيب أمة ما يعني تناقصاً في العمران والحضارة، حتى علوم اللغة منها كعلم النحو والبيان والبلاغة والصرف فهي علوم تتناقص وتصل إلى الانحطاط والانهيار بسبب نقص الحضارة وانحطاطها: "لما انهارت حضارة أهل الأندلس على يد النصرانية وتغلبوا عليهم، فشغلوا عن تعلم هذه الصنعة (الملكة اللسانية) وتناقص العمران فتناقص لذلك شأن الصنائع كلها، فقصرت الملكة فيهم عن شأنها حتى بلغت الحضيض". (المقدمة، في أن أهل الأمصار قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية).

فهل بلغكم من فساد لغتنا حديثاً؟ وهل انتبهتم إلى فساد الدين والأخلاق الذي يؤتى من فسادها!

لن تبلغ أمتنا مكانةً وقيمةً وجدانيةً ووجودية، إن لم تسعى إلى الصلاح والاستقامة والانتظام سعياً حثيثاً في حركاتها وسكناتها، في جوهرها قبل وجودها. لغتنا وكلامنا ومصطلحاتنا مرآة لجوهرنا ينعكس على حياتنا الاجتماعية والسياسية والدينية.

لنصالح المعنى واللفظ، الدال والمدلول، ونُعِيد المصطلح من النفي والمنفى والاعتراب ونقيمه ونقومه في حضنه وأصله وجوهره.



الحرية دون معنى وغاية حرية مبتورة

النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ (الروم: 30).

تشير هذه الآيات إلى أن العلاقات الإنسانية ليست مجرد ترتيبات اجتماعية تشكلها اختياراتنا وإرادتنا، بل هي جزء من واقع طبيعي منظم ومتعدد الطبقات، يمنح الحياة الإنسانية وجهتها وغايتها ومعناها.

الطبقة الأولى: البيولوجيا

يتطلب التكاثر البشري علاقات بيولوجية مختلفة من الذكور والإناث، وقد حدد علم الأحياء لكل من الجنسين أدوارًا تناسلية مختلفة.

الجهاز التناسلي الأنثوي دوري ومنفصل إلى حد كبير ولا إرادي. فالمرأة لا تملك سيطرة واعية على عملية الإباضة أو الحيض؛ فالدورة الشهرية عملية



د. أسرار تالوكر

جيولوجيا البحار وناشط اجتماعي. بيرث،
أستراليا



■ تنبيه: أنا أقرأ القرآن في ضوء العلم والفلسفة والأخلاق والسياسات العامة. وهذه المقالة ليست مناقشة في العقيدة، بل بعض التفكير العقلاني في ضوء القرآن.

السياق

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: 21).

﴿فَاقِمِ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ

فسيولوجية. كما أن الحمل لا يعتمد على الرغبة الجنسية لدى المرأة. ويمكن أن يحدث الحمل بغض النظر عن وجود الانجذاب الجنسي.

والقدرة الإنجابية للمرأة محدودة بالعمر، وتتطلب انخراطاً بيولوجياً طويلاً الأمد من الحمل والولادة ثم رعاية الأطفال. من منظور بيولوجي بحت، يرتبط النجاح الإنجابي للمرأة بدرجة أكبر بالانتقائية والاستثمار الأبوي.

أما الدور الإنجابي للذكر فهو مختلف. فالجهاز التناسلي الذكري يتميز بإنتاج مستمر للحيوانات المنوية وبالقذف الإرادي، إلى جانب حوافز ودوافع جنسية قوية.

من الناحية البيولوجية، عملية التكاثر لدى الذكور أقل تقييداً. فمن الناحية النظرية، يمكن لرجل واحد أن ينجب أطفالاً من عدة نساء في الوقت نفسه. رغم أن خصوبة الرجل تتراجع أيضاً مع التقدم في العمر، لكنها ليست محدودة بالطريقة نفسها كما خصوبة المرأة. ولذلك النجاح الإنجابي للذكور مرتبط بدرجة أكبر بعدد فرص التزاوج المتاحة لهم، إذ يستطيع الرجل، نظرياً، إنجاب أطفال من عدة نساء في الفترة نفسها.

يحتاج الأبناء البشريون إلى سنوات من الرعاية والحماية والإنفاق. يجعل علم الأحياء التكاثر ممكناً، لكنه لا ينظم بمفرده المسؤوليات التي تترتب عليه. لذلك، فاستمرار الحياة يخلق احتياجات اجتماعية لا يستطيع علم الأحياء وحده تلبيتها بالكامل.

الطبقة الثانية: الاجتماع والاقتصاد

يبدو أن الأسرة التقليدية كانت شكلاً من أشكال التكيف الاجتماعي، أي ترتيباً مؤسسياً قائماً على الزواج، يتوافق مع واقعنا الإنجابي ويسهم في استدامته. وفي صورتها التقليدية، أنشأت تقسيمًا للأدوار: النساء بوصفهن مقدمات الرعاية الأساسيات، والرجال بوصفهم المعيلين. فالنساء يحملن الأبناء ويرعينهم، في حين يضمن الرجال توفير الموارد والحماية. في جوهرها، كانت الأسرة

الأسرة أكثر من مجرد آلية بيولوجية أو مؤسسة اجتماعية

علاقة تقوم على الاعتماد المتبادل والتكامل. فقد جعل علم الأحياء التكاثر ممكناً، بينما ساعدت الأسرة على جعله مستداماً.

مع ذلك، ليس من الدقيق القول إن النساء كنّ غائبات عن النشاط الاقتصادي. بل إن الحياة الاقتصادية نفسها كانت تتمحور إلى حد كبير حول المنزل، وهو ما بدأ يتغير مع الثورة الصناعية. فقد انتقل المركز الاقتصادي من المنزل إلى المصانع وأماكن العمل الخارجية. وبذلك فصل الإنتاج عن الإنجاب على المستوى المادي والبنوي، وأعيد، في جوانب كثيرة، تعريف الأدوار التي كانت مندمجة سابقاً داخل الأسرة.

غير أن التعاون الاقتصادي وحده لا يستطيع تحقيق الاستقرار الكامل للحياة الأسرية. فمسائل الجنس والأبوة والميراث والوفاء والالتزام تظهر حتمًا. واستدامة الحياة لا تتطلب الموارد والتعاون فحسب، بل تحتاج أيضًا إلى معايير وتوقعات.

الطبقة الثالثة: الدين

يبدو الدين طبقة إضافية تعزز البنى الأسرية وتنظمها بطرق تتوافق مع النتائج الإنجابية. فهو يبنى على الحقائق البيولوجية والترتيبات الاجتماعية والاقتصادية، من خلال إضفاء الطابع الرسمي على الحدود والمعايير المتعلقة بالعلاقات والجنس والحياة الأسرية.

على سبيل المثال، تحظر الأديان السماوية العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج، وتحصر العلاقات الجنسية المشروعة في مؤسسة الزواج. ويقوم هذا الإطار على العلاقة بين الرجل والمرأة، كما يعترف



اللباس شكل أساسي من أشكال الحماية؛ فمن دونه نحن عراة ومكشوفون في آن واحد. وتجسد استعارة القرآن للأزواج لباساً بعضهم لبعض العلاقة المعقدة بين القوة والهشاشة. فالزوجان يتجردان من ثيابهما أمام بعضهما بعضاً، ويرى كل منهما هشاشة صاحبه وهما في الوقت نفسه يعتمدان على بعضهما داخل العلاقة. إنهما لباس أحدهما للآخر. معاً يمنحان بعضهما بعضاً الأمان والسكينة والكرامة والجمال، ويجسدان هذه القيم في حياة المجتمع أيضاً.

الغاية الروحية من الزواج هي العثور على السكينة من خلال المودة والمحبة والرحمة المتبادلة. وبهذا تصبح الأسرة أكثر من مجرد آلية بيولوجية أو مؤسسة اجتماعية أو التزام ديني؛ إذ تصبح المكان الذي تتحقق فيه هذه الحقائق مجتمعة.

الطبقة الخامسة: التحول التكنولوجي

عنصران اثنان كان لهما أثر بالغ على العلاقة الزوجية: الثورة الصناعية واختراع حبوب منع الحمل.

سرّعت الثورة الصناعية عملية سبق تناولها في الطبقة الاجتماعية والاقتصادية. فقد أصبحت الحياة الاقتصادية منفصلة أكثر عن الحياة الأسرية. في الوقت نفسه، أدت المكنة إلى تقليص أهمية القوة البدنية في كثير من أشكال العمل. وحلّت الآلات محل القوة العضلية، مما أتاح للنساء المشاركة في الحياة الاقتصادية بطرق لم تكن متاحة في السابق.

ثم جاءت حبوب منع الحمل وأحدثت تحولاً آخر. فللمرة الأولى في التاريخ، اكتسبت النساء درجة غير مسبقة من السيطرة على دوراتهن الإنجابية وتوقيت الحمل. وهكذا ساهمت التكنولوجيا في التخفيف أو تغيير أو إرجاء العديد من القيود البيولوجية التي كانت تاريخياً تشكل بنية الأسرة.

لكن التقدم التكنولوجي لا يحل المشكلات فحسب، بل يخلق أيضاً مقايضات. نعم، أتاح هذا التحول فرصاً استثنائية، ولا سيما على صعيد الاستقلالية الشخصية لكنه في الوقت نفسه أوجد تحديات

صراحة ببعض الشروط البيولوجية، مثل تحريم الجماع أثناء الحيض. وداخل الزواج، تُنظم العلاقات الجنسية وتُضبط بدلاً من أن تُترك بالكامل للتقدير الفردي.

بهذا المعنى، يفرض الدين قيوداً تشكل السلوك الإنجابي. فهو يقلل من عدم اليقين وينظم الوصول ويوجه العلاقات الجنسية نحو وحدات أسرية مستقرة. كما يمكن لتعدد الزوجات، حيثما وحينما يكون مسموحاً به، أن يؤدي دوراً في مضاعفة القدرة الإنجابية ضمن سياقات اجتماعية معينة، لا سيما عندما تسمح الظروف الديموغرافية والاقتصادية بذلك.

وهكذا يحول الدين الترتيبات العملية إلى التزامات ومحظورات، ويوفر إطاراً يمكن من خلاله استقرار الحياة الأسرية عبر الأجيال.

لكن البشر لا يسعون إلى الاستقرار والنظام وحدهما، بل يسعون أيضاً إلى المعنى.

الطبقة الرابعة: الروحانية

يقول الله تعالى في القرآن إن الأزواج لباس لبعضهم بعضاً. واللباس وسيلة للحماية والكرامة والزينة والراحة. وأفضل لباس هو لباس التقوى. وتحمل الكلمة العربية «الحياء» دالتين: الحياة والإحساس بالاحتشام والكرامة والخجل. ويصف القرآن العربي بأنه قبيح كالجثث الميتة، كما يرتبط انكشاف العورة بالتعرض والانكشاف والهشاشة.

٥٥ تأثير الثورة الصناعية واختراع حبوب منع الحمل على الأسرة ٥٥

البدائل ما يكفي لتلبية التوقعات.

ملاحظة ختامية

غالبًا ما تعتبر اليابان وكوريا الجنوبية نموذجين بارزين للتنمية والتقدم الاقتصادي في أواخر القرن العشرين. لكن البلدين يواجهان الآن معدلات مواليد منخفضة، كما يشهد عدد سكانهما انخفاضًا منذ فترة.

واستجابة لذلك، أصبحت الهجرة جزءًا من النقاش حول الحفاظ على قوة العمل وتحقيق التوازن الديموغرافي. وهذا يخلق توترًا جديدًا. فما يبدو ضروريًا من منظور العمالة والإنتاجية قد يبدو أكثر تعقيدًا عند النظر إليه من زاوية الاستمرارية الثقافية والهوية الوطنية. وتظهر نقاشات مماثلة في جميع المجتمعات الغربية.

وهكذا يعود السؤال في صورة أكثر جوهرية: إذا كان علم الأحياء يجعل استمرارية الحياة أمرًا ممكنًا، والمجتمع يجعلها قابلة للتطبيق، والدين يجعلها مستقرة، والروحانية تمنحها المعنى، فماذا يحدث عندما تبدأ البنى التي كانت تضطلع بهذه الوظائف في التراخي؟ وما الذي يبقى عندما لا تعود الحياة منظمة أساسًا وفق الضرورة، بل وفق الاختيار؟

يبدو أن أمرًا واحدًا مؤكد: من دون فهم مشترك للمعنى والغاية، تظل حريتنا البيولوجية والاقتصادية والسياسية ناقصة وقاصرة ومبتورة. فطريق الله الفطري ليس قيدًا على الحرية، بل هو التوجه الذي يمنح الحرية وجهتها ومعناها وغايتها، بما يتيح للحياة الإنسانية والأسرة والمجتمع الازدهار والتقدم والسكينة.

جديدة. وتواجه مجتمعات كثيرة اليوم انخفاضًا في معدلات الخصوبة وتزايدًا في العزلة الاجتماعية، وتناميًا في حالة عدم اليقين حوا العلاقات والحياة الأسرية.

الطبقة السادسة: من الاستقلالية الرومانسية إلى الخيارات الليبرالية

الزواج تاريخيًا مؤسسة اجتماعية واقتصادية في المقام الأول. وكان يقوم على الضرورة، من خلال تنظيم الإنجاب والميراث والعمل والبقاء. وكان مجال الاختيار محدودًا. وكانت الحياة الأسرية متجذرة في الالتزام والقرابة والترابط الاقتصادي.

الزواج الرومانسي ظهر في مرحلة لاحقة، مع بدء تخفيف القيود البيولوجية والاقتصادية تدريجيًا. وأصبح الود والانجذاب والتوافق الشخصي عوامل مهمة في اختيار الشريك أكثر من ذي قبل.

ويتوازى هذا التحول في الحياة الشخصية مع توسع في الاستقلالية الفردية داخل المجتمع. فمع تحرر الناس من الأدوار التقليدية، أصبح بإمكانهم بسهولة أكبر اختيار مكان إقامتهم، وما يعملون فيه، وكيفية تنظيم حياتهم اليومية، بل وحتى اختيار عدم اعتناق أي دين.

في المجتمعات القديمة، كان عامة الناس رعايا لا مشاركين في اختيار السلطة. ففي معظم الحقب التاريخية، لم يكن السؤال المتعلق بمن سيحكمهم مطروحًا أصلًا أمامهم كخيار مفتوح. كان الحكم وراثته والسلطة تؤخذ بالحروب أو بالتسويات السياسية التي تبرمها النخب.

أما في الأنظمة الليبرالية الحديثة، فقد تغير هذا الوضع تغيرًا جوهريًا. فأصبح الفرد مشاركًا أيضًا في اختيار السلطة نفسها واستبدالها. وهذا يثير سؤالًا: إذا امتد الاختيار حتى إلى اختيار السلطة ذاتها، فما الذي يمكن طلبه بعد ذلك باسم الحرية؟

مع ذلك، هناك شعور متزايد بعدم الرضا عن الليبرالية في الغرب. فالخيارات لم تعد تجد من



Email: info@al-ummah.org

Website: www.al-ummah.org